دكتور سعيد عبده

الجمعة اليتيمة

مجموعة قصص مصرية

مطبعة عطايا بباب الخلق بمصر

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس

صفحة		صفحة	
٥	مقدمة	١٢٣	شهادة لله . . . . .
٧	الجمعة اليتيمة	١٣٤	الخامس فى الليسانس
١٥	الدكتور و	١٤٥	الصليب الأحمر . . .
٢٨	ليـــلة حظ	١٥٦	نورما شيرر . . . . .
٤١	تحت القباب	١٦٨	أجل هذه هى الخمر .
٥٣	الســـاعة ١٢ . . .	١٧٧	واسطة . . . . .
٦٢	الشيخ عفريت . . .	١٨٧	البعث . . . . .
٧٣	دم فرعون	١٩٩	ابن الله . . . . .
٨٥	فى كف عفريت . .	٢١٤	مصرع حمار . . . . .
١٠٢	نائب ديروط	٢٢٤	أم قويق . . . . .
١١٠	باب الخدم		

obeikandl.com

مقدمة

« هذه مجموعة محاولات لعمل قصة مصرية ، طريقتى فيها »
« طريقة الفلاح الجالس إلى جدار كوخه فى ضوء القمر ، »
« بعد يوم زاخر بالمتاعب ، يعزف على الناى .... إنه نغم »
« واحد تقريبا يردده المسكين ، نغم ساذج متشابه قليل الدسم ، »
« فقير الضوابط والموازين ، ولكنه صادر من قلبه ، معبر »
« عن ظمئه الروحى إلى نبع مقدس مجهول يحاول الوصول »
« إليه ، فيضرب على غير هدى ، فى تيه لا دليل له فيه ... »

« لقد خلت حياتى من كل الدراسات الأدبية التى كان »
« يمكن أن توجه هذا الظمأ الذى أحس به توجيها مجديا إلى ماء »
« النبع المقدس ، فان كنت كتبت قصصا بعد ذلك فأنما لأشكو »
« أو أتنهد ، أو أضحك ، أو أغنى على طريقة الفلاح والناى »

« وبعد فمن حسن الحظ — حظى أنا على الأقل — أنه لم »
« توضع حتى الآن فى مصر حواجز جمركية لفن القصص تحول »
« بين البضائع الرخيصة وغمر الأسواق ! ! »

obeikandl.com

الجمعة اليتيمة

انقطع صوت المؤذن فجأة بعد أن نادى « حيّ على الصلاة ! . » وحدثت جلبة خارج المسجد ، وتعالت صيحات من عدة نساء ، واندفع المصلون جماعات إلى الطريق يتساءلون . . . ورجل واحد فى جوار المنبر ، رجل عجوز هو والد المؤذن ، أدرك بخياله كل شىء ، فانتفض جسمه ولكنه ظل فى مكانه ساكنا لا يتحرك ، وكان ضريراً لا نور فى عينيه ، وكل قلبه نور ! . .

لقد سقط المؤذن من أعلى المئذنة ، وكان يؤذن الظهر لصلاة الجمعة اليتيمة وكان هذا الأذان أذانه الأول ، وكان فى العشرين من عمره ، يستقبل بفرح ، إشراق شبابه ودنياه سقط من أعلى المئذنة فدق عنقه فمات . . .

وفى بضع لحظات سكنت الجلبة ، وابتعدت صيحات النساء ، وعاد المصلون إلى المسجد ، وكل منهم يلقى نظرة

دامعة على الشيخ الضرير المفجوع الجالس فى جوار المنبر ، ومن شفة إلى شفة ترددت همسات المصلين ، لا إله إلا الله إنا لله وإنا إليه راجعون ! . . والشيخ الضرير المفجوع لا ينطق ولا يتحرك ، وإنما يهز رأسه كما كان يهزها ، ويبتسم راضيا كما كان يبتسم ، كأن الشهيد لم يكن ولده ولا قطعة من حشاه ! . .

كان الشهيد وحيد أبيه الشيخ شبانه ، وأمله الاول والأخير فى الحياة ، وقد لقنه القرآن حفظا وترتيلا ، وأنفق على تعليمه بالأزهر ثلاث سنوات ، أصبح فيها فى نظر سكان القرية جميعا شيخا من شيوخ الاسلام ، وأصبحت يده تقبل من رجال فى سن أبيه ، وقد استخلفه أبوه اليوم على مئذنة المسجد كما استخلفه على المحراب وإمامة المصلين . . .

ولأول مرة في حياة الشيخ شبانه ، جلس في جوار المنبر يسمع أذان الظهر كسائر الناس ، هو الذى كان مؤذن القرية منذ خمسين عاما مضت لا يذكر الذاكرون أنه تخلف فيها يوما عن أذان .

وكان يعيش على ضريبة يتلقاها من القرويين ، قمحا فى موسم القمح ، وذرة فى موسم الذرة ، وشعيراً فى موسم الشعير وكان لحلاق القرية ونجارها ولحّادها ضريبة مثلها فى محصول الفلاح ، وكان كل منهم يترقب الموسم ليطالب بنصيبه ، فيكتاله بنفسه والفلاح يساومه ، ويغشه ويقص من نصيبه ما استطاع ، إلا الشيخ شبانه فقد كان يجلس فى منزله ، ويوافيه نصيبه حيث هو بالكيل الوافى ، وبلا مساومات ، وفوق حظه حفان لأنه كان محبوبا من سكان القرية ، وكانت خدماته التى يؤديها لهم خدمات تتعلق بالدين والايمان ، وإيمان الفلاح راسخ كالجبل ، جارف كالشلال ، عميق بسيط يخاف الله . . .

وشعر الشيخ شبانه فى مكانه الجديد بجوار المنبر أثناء أذان الظهر أنه فى المنفى . ولكل إنسان مجده ، ومجد الشيخ شبانه كان في جوار الله على قمة المئذنة ، وكان يتمنى أن يموت وهو يرفع عليها صوته بالأذان . . . فلما تركها شعر أن قلبه قد فارق وطناً يحبه وكأنما مات له ولد ، ولكنه مع ذلك

مسح من عينه الضريرة دمعة سرور هادىء على أنه إنما يستخلف نطفة منه على معالم عزه ودنياه . . .

وحينما نادى ابنه على المئذنة . . . الله أكبر ، الله أكبر ، ورجّع المصلون جميعاً نداءه وهم يتبادلون الاعجاب بصوت مؤذنهم الجديد ، غفر الشيخ شبانه لدنياه ما تقدم من محنها وما تأخر وقبّل ظهر يده بخشوع ، وذابت كل المخاوف التي ملأت صدره وهو خارج من داره مع ابنه فى هذا الصباح . . .

كان صدره ممتلئا فى هذا الصباح بالمخاوف لا ن يوم الجمعة اليتيمة ـ الجمعة التي لا أخت لها فى آخر شهر رمضان ـ كان يحمل إلى قلبه دائما ضبابة من الهم والشجن ، كان دائما يتوقع فى هذا اليوم كارثة ، وكل ساعة كانت تمر من النهار كانت تترك نحسها لأختها ، وعند ما كانت تغرب الشمس كان الشيخ شبانه يتنفس الصعداء كالذى فر من خطر محقق ويجأر بالحمد والشكر والدعاء .

وعند ما أصر أعيان القرية وشيوخ الرأي فيها على أن

يستخلف الشيخ شبانه ولده فى هـذا اليوم تضاعفت مخاوفه المبهمة ، ولـكن شيئا ما أخرس لسانه فلم يحتجّ ولم يتعلل واستجار بينه وبين نفسه بخفيّ الالطاف .

وعلى الرغم من أنه وضع تميمة فى عنق ابنـه كان قد ورثها عن أبيه ، فقد ظل قلبه يضطرب ، وقد سأل ابنه إن كان يرى غيما فى الأفق . . . قال كلا . . . ثم سكت قليلا وسأله إن كانت الشمس مشرقة ، قال أجل ، فعاد إلى السكوت ثم أوصاه للمرة الثالثة أن يلزم بناء المئذنة ولا يتكيء على سورها الخشبي وهو يؤذن ، لأنه قديم وكثير من قوائمه الرفيعة قد نخره السوس .

وعثرت رجله بحجر وهو يمشى بلا عكاز ولا دليل ، وكان الشيخ شبانه فى هذه السن ما يزال كالثور قوة ومتانة بناء ، فبصق فى الأرض بصقة يطرد بها النحس ، ثم رفع وجهه للسماء ، وقال : اللهمّ إنى لا أسألك رد القضاء ولـكنى أسألك اللطف فيه . . .

وفى كل يوم كان يردد هـذا الدعاء بلا تفـكير ،

ولـكنه فى هذا اليوم شعر أن كل كلمة من كلماته تعصر فى صدره بضعة من قلبه المملوء .

ومن أجل هذا شعر الشيخ شبانه بالمأساة كلها وهو جالس بجوار المنبر لا ينطق ولا يتحرك ، بينما الناس الذين لهم عيون ترى وتبصر ، خرجوا كلهم من المسجد ، يتساءلون عن الأذان المقطوع والجسد المصدوع .

ولم يكن أحد من المصلين يعرف كيف يتم الأذان ولا كيف تنتهى الصلاة ، لولا أن أنقذ الشيخ شبانه بنفسه الموقف فتحرك فى مجلسه بجوار المنبر كمن يريد أن يقوم ، وبعد جهاد عنيف استطاع أن يقف على قدميه متكئا بكلتا يديه على المنبر ، ولا أحد يعلم ماذا يريد . . .

وخطا خطوة إلى باب فى جوف المنبر كان أعيان القرية يضعون فيه عصيّهم ونعالهم ، فتناول من بينها عصا توكأ عليها ومشى فى طريق المأذنة والناس ينظرون إليه متوجعين هامسين ويخلون له الطريق .

ولأول مرة فى حياته مشى الشيخ شبانه متوكئا على

عصا ، وانتقمت منه السبعون عاما التي ظل يسخر منها إلى اليوم فى لحظة فأوهنت قواه ، وأطفأت فى قلبه النور وجعلته يمشي فى طريقه كالأوزة المذبوحة متعثرا بهذا وذاك . . .

وانكفأ على وجهه مرتين وهو يصعد فى سلم المئذنة ، وخارت قواه أكثر مما كانت خائرة ، وتخضب بالدم وجهه ولحيته ويداه ، ولكنه لم ييأس ، واستنصر بكل قطرة من دمه ، وبكل عصب من أعصابه ، حتى أدرك المئذنة ، فى النهاية فرمي العصا من يده واستند إلى الجدار ، واستقبل الشمس بصدر مفتوح ، وقامة كقامة جبار انتصر فى معركة حاسمة وفى بضع لحظات عاد شاباً أكثر مما كان . . .

ومشي حول المئذنة يتحسس سورها بيديه حتى وجد الثغرة التي وقع منها ولده ، فأخذ يستلّ منها الخشب بسهولة ويضغطه بين يديه ، فيذوب مما فعل فيه البلى والسوس ثم نادى بأعلى صوته : حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة ! ولكن لم يخرج من حلقه صوت ، فكرر النداء ، فخرج الصوت من حلقه ضعيفاً كأنه خارج من حنجرة ميت ،

ولكنه لم ييأس أيضاً وأعاد النداء ، واستمر فى الأذان ، وصوته يعلو ويعلو ، والمصلون فى المسجد يرجِّعون نداءاته لا بتكرارها كما كانوا يرجعون نداءات ولده الشهيد ، ولكن بقولهم لا إله إلا الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . . .

وبعد أن أتم أذانه استمر فى أعلى ما وصل إليه صوته يقول : اللهم إنى كنت سألتك اللطف فى القضاء . . . اللهم إنى كنت سألتك اللطف فى القضاء . . . اللهم إنى كنت سألتك اللطف فى القضاء . . .

ثم نزل من المئذنة . . .

فقط لم ينزل من السلم ! وإنما نزل من نفس الطريق الذى نزل منه ابنه الوحيد ، ورجاؤه فى الحياة !

الدكتور و...

صديق الدكتور (و ...) الذى أروى عنه هذه القصة طبيب محترم الآن ، وله سمعة طيبة فى الحى الذى يعيش فيه ، وهو يرويها عن نفسه كلما سأله أحد عن الصورة الزيتية المعلقة فوق رأسه ...

لقد كان قلبه يخفق بشدة وهو يمسك المشرط ، ويقف بجانب مريضه ، منتظراً سريان المخدّر فى جسمه ، ليبدأ العملية الجراحية الأولى فى عمله الحر المستقل بعد نواله الدبلوم.

وقد قمت أنا تحت إشرافه باعطاء المخدّر للمريض ، فى هيئة حقنة فى الظهر من محلول « الاستوفايين » ، مشتركا معه فى تقدير الكمية اللازمة ، واختيار المكان الصالح ، والاستيثاق من كل شىء قبل البدء فيه .

كان الدكتور (و ...) هو الجندى الأول دائما فى

فرقته أثناء الدراسة . ولما فرغ منها كان صدره محلّى بأكثر من مائة وسام ، وكان وراءه أكثر من مائة دعاء بالفلاح ، من عدة قلوب طيبة تحبه وتتمنى له الخير والتوفيق . . .

ولما فتح عيادته كانت مكونة من خمس حجرات جميلة إحداها لاقامة المريض عند اللزوم ، وتفوح منها كلها باستمرار رائحة الصابون والليزول ، وعلى جدرانها كلها صور مختلفة ، موزعة على الغرف بعدل ودقة اختيار ، وكل أثاثها يتحدث عن نعمة مواتية وذوق سليم ، وكل الذي كان ينقصها لتكون عيادة طيب حقيقية هو .. المرضى !!

لقد لبث الدكتور (و ...) ينتظر مريضه الأول ستة أشهر بصبر وأمل لا ينتهى ، وشوق عظيم . ويسائل عنه دائما فى أول كل شهر مطلع الهلال الجديد .

وكل دقة على جرس الباب كان يخفق لها قلبه باعتبارها بشيراً بمريض . ولكن دقات الجرس كان يتضح فى النهاية أنها من أصابع سليمة ... أصابع أقارب وأصدقاء ، أو باعة يعرضون بضائع ، أو زوار لأشخاص آخرين أخطأوا

فى العنوان ... وفى إحدى المرات دخل مريض حقيق ، وقوبل بالبشر والترحاب ، ولكنه طلب من الدكتور عدم المؤاخذة ، وخرج لأنه كان يظن هذه العيادة عياة الدكتور اسماعيل !

ومع ذلك فقد حدثت المعجزة فى يوم من الأيام ، ودخل المسيح المنتظر ، وكان فى هذه المرة يقصد الدكتور (و ...) بالذات .

ولم يكن بنفس الصورة الخيالية التى رسمها الدكتور فى أحلامه لمريضه الأول ، أى أفندى مهذب مؤدب ، فى بنصره خاتم من الذهب ، وفى رباط عنقه الحريرى دبوس من الألماس ، ويتكىء من هذه الناحية على خادم ، ومن الناحية الأخرى على عصا من الأبنوس ذات مقبض من العاج ، ويشكو من الأرق والصداع ! وإنما كان (عربجى كارّو) أول شىء فعله عند ما دخل مكتب الطبيب هو أنه جمع بسعال عنيف كل ما فى صدره من متاعب العمل المضنى والشقاء المستمر ، ودخان الجوزة التي من الهند ، جمع كل

هذا فى بصقة واحدة خرجت من فمه كما تخرج القنبلة من فوهة المدفع ، فأصابت لوحة معلقة على الجدار المقابل ، يحرم فيها الطبيب على مرضاه البصق على الأرض منعا لانتشار الأمراض ...

وثانى شيء فعله الحاج ياسين هو أنه سلم باشتياق وبدون تكليف على الدكتور، وذكّره ، وهو يضع على المكتب رزمة من الجبال كانت على كتفه ، أنه عربجى العائلة ، وكان يعرف المرحوم والده معرفة صداقة وجوار ..

ولما جاء دور الاتفاق على أتعاب عملية الفتق الذى يشكو منه الحاج ياسين، حدثت مساومات عنيفة ، وترددت بين الطرفين ألفاظ قاسية ، حطمت كل المثل العليا التى قضى الدكتور (و ...) فى وضعها ستة أشهر ، للتعامل بمقتضاها مع مرضاه ، فقد اتضح له فى النهاية أن الحاج ياسين لا يريد أن يدفع أكثر من جنيه على أن يكون الدفع بعد تمام الشفاء..

واحتراما لذكرى والده ، ولرغبته فى التمرين بأي ثمن ، رضى الدكتور (و ...) أن يقوم بالعمليه بهذه الشروط ..

وفى صباح اليوم التالى ، أثناء إعطاه المخدر والاستعداد للبدء فى العمل ، كان يوجد جمع من أهل وأصدقاء عم ياسين، مكوّن من خمسة رجال ، وثلاث سيدات وأربعة أطفال ، ورضيعين ، تفرقوا فى غرف الانتظار فى العيادة وجعلوها كلها كعش الزنابير ...

ولم يستطع الدكتور أن يتنفس أو يعترض أو يقول لهم شيئا ، لأنه كان يؤمن بالبخت الأول ، وبالنعمة التى لا ينبغي طردها ولو كانت قشرة بطيخ ...

وفى انتظار فعل المخدر بالحاج ياسين وقف الطبيب إلى جانبه يراجع فى نفسه ، وقلبه خافق ، كل خطوات العملية التي قرأها بالأمس فى أكثر من كتاب واحد ، أربعين مرة ، وبين كل مرة ومرة يجس جسد المريض بسن مبضعه ليرى هل بدأ فعل المخدر فيتأوه المريض دليلا على استمرار الاحساس ...

وفى النهاية بدأ الدكتور يحس بالقلق وينتقل بنظره صامتا بينى وبين زجاجة الاستوفايين ، ولما فشلنا في إيجاد

سبب معقول لهذا التأخر في فعل المخدر ، بدأ الذعر يتسرب إلينا معا ، وبدأت عيوننا تتكلم بألف احتمال وألف خطأ ممكن أو مستحيل الوقوع ، والألسنة عاجزة تماما عن إنقاذ الموقف بالكلام . . . وعم ياسين لا يسكت أبداً ويسأل باستمرار وإلحاح غريب عن البنج لماذا لا يشتغل للآن ، ونحن نطمئنه بأن فعل البنج فى الطريق ، ونحن أنفسنا فى حاجة إلى اطمئنان . . . وركبتاى الاثنتان بدأتا تضعفان عن حملى ، والدكتور (و . . .) أخذ يتبسم تشجيعا لى ، ولكن ابتسامته كانت نفسها ترجمانا صادقا للفرق المستولى عليه . . .

ماذا يحدث لو أن زجاجة الاستوفايين كان بها مادة أخرى ربما كانت من سمّ ؟ . . وماذا يقول يومئذ عم ياسين وأهل عم ياسين الذين فشلت كل توسلات التمورجي فى إسكات ضوضائهم النافذة من باب حجرة العمليات ، وصراخهم المزعج كلما سمعوا تأوهات الرجل الذى كان فى نظرهم الآن عظيما جدا كالاله ؟ . . وماذا نفعل ونحن ثلاثة ، أنا والطبيب والتمورجى وهم جيش ، ورزمة الحبال موجودة

فى غرفة المكتب ، وفيها متسع لأعناق الجميع ؛ . .

توجد فى غرفة العمليات زجاجة كلوروفرم وممكن استئناف التخدير بها وهى فكرة طرأت علينا نحن الأثنين ، ولكن التفكير سهل ، والأشق هو العمل ، ووضع الجرس فى رقبة القط فكرة خطرت للجرذان فى لحظة ، ولكنها لم تنفذ فى مائة جيل ، فأنا شخصيا ما زلت طالبا بكلية الطب ، والزمالة بين الطالب والطبيب معناها العمل بلا مقابل ، فلا داعى لتحمل تبعات بلا ثمن ، وهو لم يكن فى استطاعته أن يستعمل الزجاجة والمبضع فى آن واحد ، ولم يندم على عدم وجود طبيب مساعد لأن الطبيب كان يتطلب منه أكثر مما سيأخذ هو من المريض ، هذا إلى أخذه نصيب الأسد فى المجد عند النجاح ، وانسلاله من المعركة بمهارة فى حالة الفشل . . .

والزمن كان يمر بشكل عجيب والثوانى أصبح لها قيمة زمنية فى هذا الجو المشبع بالحيرة والقلق والاضطراب . والدقائق أصبحت كالساعات . . وحاول الدكتور (و . . .)

أن يتسلى بالتصفير ، ولكن القناع منعه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت أنفاسه بلا قوة ولا روح ، فاكتفى بالتحديق فيّ أنا تارة ، وتارة أخرى فى زجاجة الاستوفايين باعتبارنا نحن الأثنين السبب فى كل هذا الارتباك ..

تحدث مفاجآت كثيرة من هذا القبيل لأطباء قدماء ، يخرجون منها بفكاهة ، أو أكذوبة عامية على المريض ، ولكن الذين مارسوا شعور الطبيب الجديد ، الداخل لأول مرة على دنياه العملية وعلى كعبة آماله فى المستقبل بدون مرشد ، فى استطاعتهم أن يدركوا مقدار الحرج البالغ إلى درجة الذهول الذى استولى علينا أنا والدكتور (و. . .) فى هذه اللحظات ! . . . كيف أن المخدّر لم يفعل فعله حتى الآن !

والحاج ياسين لو كان بالفعل قد مات تحت مبضع جراح قديم لما ارتبك كل هذا الارتباك ، «وبناقص زبون !» ولكن فى حالة الدكتور (و . . .) كانت حياة الحاج ياسين مهمة جدا ، وقد آلى على نفسه إن خرج من هذه الورطة

سليما فى الجسم والشرف ألا يلمس أبداً مشرط الجراح !

وقد بالغ الحاج ياسين فى التذمر ، وأخذ يمهد لحذف جزء من المبلغ الزهيد المتفق عليه بلعن الطب والأطباء والندم على الزمان القديم ، زمان فتح الحمص ، والخزام والكىّ بالمسمار ، وكلما جسّ الدكتور جلده بسن المشرط ليرى هل سرى مفعول المخدّر فى نصفه الأسفل كما كان ينتظر ، تلقى منه جازعا نفس الجواب أى التأوهات واللعنات !..

ولم يكن معنا ساعة ، وشعورنا بمرور الوقت كان هو الميزان الزمنى الوحيد ، وقد خيل إلينا أنه مرت على الأقل ساعة منذ إعطاء المخدر ، وكانت هذه الساعة كافية لتسرب اليأس إلى القلوب . . .

واتفقنا فيما بيننا على تأجيل العملية للغد ، إن تكن هناك بقية فى عمر عم ياسين وناداه الدكتور أن يقوم . . .

وفرح عم ياسين جداً وظن أن العملية انتهت ، فامتلأ وجهه بالبشر ، الذى حاول كتمانه ونادى الدكتور . . .

« خلاص ولا إيه ؟ .. »

وأجابه الدكتور (و . . .) هـذه كانت « بروفة » فقط . وقد وجدناك صالحا للعملية تماما وقادراً على تخطيها بمنتهى النجاح . . . !

وأضفت أنا إلى ذلك . أننا لسنا كالأطباء الآخرين الذين يعملون العمليات بلا تأكد من نتيجتها ويقتلون الناس ! . .

وهو كان يردد طرفه بيـلاهة بيننا نحن الأثنين ، وأخيراً نطق وقال . . . « أمال ده كان كله إيه ، إبرة البنج اللى كسرت ضهرى . والسكينة اللى أكلت من لحم بطنى سبع حتات ؟ . . . »

وتكاتفنا على إقناعه أن المسألة كلها مسألة تجربة وتحضير ، وأن لحم بطنه ما زال سليما كما كان وأن ما يسميه بنجا لم يكن سوى ماء . وحلفنا له مائة يمين ، ونصحنا له بأخذ شربة كما فعل فى الليلة الماضية ، والعودة مبكرا فى الصباح . . .

ولما خرج مقتنعا قوبل بالزغاريد ، وظن أهله أن خروجه

على قدميه معناه حدوث معجزة ، وبدأوا يقبلونه ويعانقونه ويدعون للطبيب ، فلما تبينت لهم حقيقة الأمر أخذوه وخرجوا يتهامسون ويتساءلون ، وبعضهم ترك وراءه عدة ألفاظ ونظرات رأينا من باب التسامح والحكمة اعتبارها كأن لم تكن حسما للخلاف . .

ولما عدنا إلى غرفة المكتب ، وأصبحنا فى العيادة وحيدين ، تنفسنا تنفس الذى أزيح عن قلبه جبل . . . وأخرجت ساعتي من جيب سترتى فرأيتها العاشرة والنصف وظننتها واقفة ، ولكن لما رفعتها إلى اذنى وجدت قلبها يخفق كقلبي تماما ، وسألت الدكتور عن ساعته ، فاذا الزمن متفق فى الساعتين ، وكان مثار العجب والدهشة والذهول أن الزمن الطويل الذى قضيناه فى غرفة العمليات لم يكن أكثر من ربع ساعة . . .

زمن ضئيل فى الواقع ، ولم يكن كافيا لفعل الاستوفايين . . . ! !

وقبل أن نمسح ما تصبب على جباهنا من عرق . . .

عرق الخوف من حدوث نكبة للحاج ياسين ، وهو سائر فى الطريق يحمل فى جسمه فعل المخدّر المكنون ، سمعنا صراخ نساء فى الشارع ، وضوضاء جمع كبير من الناس ، ثم قرعا بعدة أيد على الباب ... ولم تكن عندنا مسدسات ولا أسلحة للدفاع عن أنفسنا غير المشارط الصغيرة التى لا قيمة لها أمام «النبابيت» ، فأسلمنا أمرنا لله ونطقنا بالشهادتين !..

وفى لحظات كان الحاج ياسين ممدداً أمامنا على الأرض ونصفه الأسفل مشلول بفعل الاستوفايين ! ! وأصبحنا مسئولين أمام الله والتاريخ ورزمة الحبال وعدد من البلغ الصفراء عن حياة سبع الرجال . .

وبدلا من أن نجد نبابيت مشهورة فى أيدى أعداء ، وجدنا نساء ورجالا متجمعين حولنا وحول الرجل المشلول يتوسلون ويبكون ! . . . فقد نسى عم ياسين وأهله لحسن حظنا عملية الفتق والمخدّر ، واتجهت أذهانهم إلى أنه «منقوط» وأن هذه « النقطة » قضاء من الله ولم يكن بالطبع من الحكمة أن ننزع من أذهانهم هذا الاعتقاد . . .

وشفى عم ياسين من الشلل المزيف على أيدينا فى بضع ساعات وقام كالحصان ، وعد شفاؤه معجزة وكانت هذه المعجزة سببا فى ذيوع اسم الدكتور (و . . .) فى الحي كطبيب عظيم فى يده سحر وفى شفته بلسم . . .

وفى العيادة الضخمة التى يملكها الدكتور (و . . .) الآن فى أجمل أحياء العاصمة والمكونة من عشر غرف ، يرى الزائر ساعة حائط فى غرفة العمليات بعقارب طوال ، وصورة زيتية موضوعة فوق رأس الدكتور . . . صورة مكبرة لرجل مات بفتق مختنق فى إحدى المستشفيات ، وعلى كتفه رزمه حبال ، هو المرحوم . . . الحاج ياسين !

ليلة حظ ...!

كان رجائي ثملا ... ثملا إلى أظافر قدميه ... وكل قطرة من دمه كان نصفها ماء ونصفها الآخر زبيب ! ...

وكانت ضحكاته العالية تشبه خوار العجل ، وتخجل بصوتها هدير الموج . ولم يكن على الشاطىء بعد منتصف الليل ما يضحك ، إلا منظر جندى خفر السواحل معانقا ركاز راية الخطر السوداء ، باحدى يديه ، ومتكئا بالأخرى على فم البندقية . وتأتها بهذه الصورة فى « تعسيلة » نعاس ، ولكن رجائى لم يكن يضحك من الجندى لأنه لم يكن يراه وإنما كان يضحك من كل كلمة يقولها رفيقه عباس ...

وقد شاطره عباس فى هذه الليلة عشرين كأساً من الزبيب فى بار صغير بشارع أفيروف بالاسكندرية ، تجلس على صندوقه فتاة جميلة لها عيون تتكلم بكل اللغات ، وشعر مرسل

محلول يتموج ضفائر ، ضفائر على كتفها العارية وصدرها المكشوف إلى ما تحت مجمع النهدين بقليل ، وكانت بابتسامة حية ، ونظرة من نظراتها الحلوة الآسرة ، تذكّرهما بفراغ الأقداح كلما فرغت الأقداح . . .

ولكي يضع رجائى المفتاح بيده المرتعشة فى ثقب الباب . . . باب الكابين المنعزل ، اضطر هو وزميله عباس إلى إشعال علبتين من الكبريت عوداً بعود ، والمفتاح على الرغم من ذلك لا يعرف الطريق ، لا فى يد رجائى ولا فى يد عباس ، وكل عود يشتعل وينطفىء على فكاهة من أحد الرفيقين ، فكاهة قذرة ، تدنس سكينة الليل ، وتدنس جمال الأناشيد الطافية مع الزبد من أفواه عرائس الماء ، بل وتدنس نفس الأرجاس والذكريات النجسة التى خلفتها طول النهار فى قرار البحر معاصي وشهوات المستحمين وغير المستحمين ! . . .

وأفاق الجندي الغافل على ضحك الرفيقين ، وعلى ضوء عيدان الكبريت ، ولم يكد يتهيأ بندقيته للهجوم على اللصوص

كاى جندى شجاع ، حتى عرف صوت الرفيقين ، وأخذ يضحك معهما ملء شدقيه ، كلما غازلت سمعه إحدى النكات وتولى عنهما فى النهاية فتح الباب . .

وأراد عباس أن يشعل له عوداً من الكبريت يهتدى به في الظلام إلى ثقب المفتاح ، ولكن الجندى أطفأه بسرعة وأخذ منه العلبة بحالها ورماها إلى آخر ما تصل قواه ، ثم صاح به وهو يعالج الباب « هذا يساوى مجلس عسكرى ياسيد عباس . . التستر على مهربين ، وإلى أن يثبت أنكم لستم مهربى حشيش ولا كوكايين ، أكون أنا قد فقدت الأشرطة الثلاثة ، إن لم أكن قد فقدت بندقيتي وقوتى وقوت العيال . . هع ع ع ع ! . . . ومفتش السواحل الجديد لا يملأ فمه غير الجنيهات ! »

وفشل هو أيضاً فى إيلاج المفتاح ، لأن الثقب كان مشغولا بمفتاح من الداخل ، وكان الباب مغلقاً بمزلاج ، فوضع الشاويش عطيّه كتفه فيه ، واتكأ على كتفه بملء قواه ، وانفتح الباب فى النهاية ، واشترك الجميع فى قهقهة

طويلة ضاع بينها وبين هدير الموج صوت كسر القفل والرتاج . . .

ثم انصرف الشاويش عطيه وهو يحس بيده وأسنانه ، قرصاً من المعدن تركه فى كفه عباس ، ثم يدلك كتفه بيده ويقول مخاطبا غير شخص ، « الله يتعبك يا مرسى افندى زى ما تعبت كتفى . . . يعنى لازم تقفل الباب عليك أنت وهيّه وتسكر لحد ما تموت ! » .

وفى داخل الكوخ الخشبى ، كان الظلام كالكحل لا ترى فيه غير الأشباح بلا تفاصيل ، وكان الضوء الضئيل الذى ملأ ظلمة الكوخ منبعثا إليها من نجوم السماء ، قد أخذ الشاويش عطيه أكثره معه لما قفل باب الكوخ ، وترك أقله ساقطا من كوة مفتوحة فى الجدار الرقيق .

وبينما كان رجائى يخلع بنطلونه أصابت يده الممتدة عين عباس ، فتأوّه عباس ، وسب الدين ، وتحسّس بيده مكان المصباح حتى إذا وجده سأل رجائى إن كان يوجد معه كبريت فأجابه بالنفى فاندفع عباس إلى مرسى افندى النائم فى السرير

فعثرت قدمه ببضع زجاجات فوارغ ، كنّ بقايا ليلة حظ قضاها مرسي افندى فى الكوخ ، بلا حاجة من الخارج إلى سمير يقارعه الأقداح ! . . .

وأحدثت الزجاجات الفارغة صوتا هائلا أضحك عباس ، وبعث إلى شفتيه ألف لعنة « لدين الظلام » ، ودين الكبريت ، ودين المصابيح ، وما من ذلك شيء أيقظ مرسى افندى الذى كان يبدو كالملائكة وهو نائم يغط فى السرير .

وحاول عباس أن يهزه بعنف ليوقظه ويسأله عن الكبريت ، فوقعت يده فى الناحية الاخرى من السرير على شعر امرأة ، وانزلقت من الشعر الناعم ، إلى الصدر العارى ، فنادى زميله بصوت خافت لأول مرة « رجائى . . رجائى . . تعال . . تعال . . هشت . . بشويش ! ! »

وحاول كلاهما أن يوقظ مرسى افندى بلطف فى هذه المرة ، ولكن مرسي افندى لم يكن نائما بمقدار ما كان ثملا هو الآخر ، وكل ما فعله قبل أن يقع على الأرض متدحرجا على أيدى زميليه إلى ما تحت السرير ، هو أنه

لعن أم عباس « على الجزمة » مقهقها . وكل ما فعلاه هما قبل أن يتمدد كل منهما على أحد جانبي السرير ، فيطوق بذراعه النصف الذي يليه من جسم « جولييت » ، أن اشتركا فى قهقهة عالية ، اشتركت معهما فيها روح القديسة النائمة ، ضاحكة بلا صوت ولكن بتنهد طويل كأنها فى قرارة العالم الذهبي تفيق من أعقاب حلم جميل !

وأطلت نجمة من نجوم السماء من كوة الكوخ المفتوحة ، وكانت نجمة عذراء ، فتلقفت أقرب قطعة من قطع الغمام الأبيض السائر نحو الشرق فى سماء الاسكندرية باحثا عن نور الفجر الجديد ، تلقفتها غاضبة فانشحت بها ، وكان في صفحة الغمامة ثقب صغير فاتفق وجوده بالصدفة أمام عين النجمة العذراء ! .

. . . . . .

اشترك مرسى ورجأى وعباس فى هذا الكوخ المنعزل على شاطىء سيدى بشر القديم ، أيام أن كان بكراً لم تفترعه « الاكشاك » المنظمة ولا القوانين .

وكل منهم كان يساهم زميليه بثلث الضرائب والايجار والنفقات . .

وكان الثلاثة يعملون فى عمل واحد ، ويتفقون فى الأهواء والمشارب والانحطاط ، وبلا معاهدات وجد كل منهم أن ما يملكه أحدهم فى الكوخ يملكه الجميع ، من «البشكير» إلى البيجاما ، إلى قميص الحمام . . وبلا معاهدات أيضاً ولا ضغائن ، وجد كل منهم نفسه فى وسط فوضى تغمر كل شىء ، من اللقمة إلى القدح ، إلى الزجاجة ، إلى المرأة ، ولم يكن أحد منهم يشمئز أن يلعق بلذة ، الإناء الذى ولغ زميله فيه ! . .

كان الكوخ قائماً فى وسط قطعة من الفضاء تحيط به من كل نواحيه ، وكان بحجمه ، ولونه الأخضر اللامع ، وتعدد مرافق الحياة فيه ، يشبه الزعيم بين الأكواخ الصغيرة الفقيرة المبعثرة من حوله هنا وهناك والتي كانت تعمر بالنهار فقط ، وفى الليل كانت تبدو كشواهد قبور ، ويبدو الشاطىء من أمامها ميتاً لا أثر للحياة فيه ، إلا حياة

الموج والسمك ، وحياة الكوخ الزعيم ، عامراً بالثالوث المقدس ، بعضه أو كله ، سامراً أو غير سامر على ميعاد أو على غير ميعاد . . .

وفى هذه الليلة التي كانت بالصدفة فى أعقاب يوم أحد ، كانت كل الرمال الممتدة أمام الكوخ ومن حوله ما زالت ثملة من عطور الغوانى اللوانى لامست أجسامهن العارية طول النهار ، واحتمت فى ظلهن من شعاع الشمس ومن خطرة النسيم .

وفى ضوء النجوم أخذت كل ذرة من ذرات الرمال تحدث أختها عما شاهدت من قصص وغمائم ، وبسمات ونظرات ، وتُرى أختها المحرومة ، بزهو ، ما جمعت من أعقاب السجائر ذات الكنار الأحمر والأزرق والمبسم المقوى الصغير ، وتفاخر أختها الظمأى بما شربت طول النهار من خمر ومن دموع . .

والأمواج تغطي بأحاديثها وأقاصيصها صوت الرمال ! . .

ولما تفتح الأقفاص مرة واحدة للسباع الجائعة المحبوسة ،

لا تكتفي باللحم وحده ، وإنما تأكل اللحم « وتقرقش » العظام ! .

وما أكثر ما تروى الرمال والامواج ! .

* * *

كان عباس أول من أفاق من الأربعة فى الصباح ، ووجد أنه فى السرير عبارة عن شاهد ملك فقط ، لأن شريكيه الآخرين كانا عبارة عن جسد واحد لا يعرف له جذع ولا أطراف ، فضحك بلا حقد ، ثم قام فأيقظ مرسى أفندى النائم تحت السرير بجردل ماء ، وجره وهو يتألم من عنقه وكتفيه ، ويلعن ويشتم ، إلى باحة الكوخ ، محاولا إسكاته ما استطاع بالقول والاشارة حتى لا يوقظ العصافير من نومها السعيد ! .

ولما أفاق تبادل الزميلان نظرة وابتسامة وتحية عسكرية ، للفضيلة النعسانة ذات الجسم الواحد والرأسين المتشابهين تماما فى لون الشعر ومجمل التقاسيم ، ثم ارتدى كل منهما قميص استحمامه ، وخرجا يستقبلان أول أشعة الشمس

بابتسامة من الشفة وصلاة من القلب ، كما يستقبله المؤمن الصالح الذي قضى ليله في الهجود والسجود . .

وانحل اللغز النائم فى السرير بعد لحظات ، فتقلب رجائي وتقلبت « جولييت » على شعاع الشمس الذى هبط عليهما من الكوة المفتوحة ، فغازل أجفانهما المغلقة علي بقية من سواد الليل الدامس ، وعلى أثارة من ظلام القلب النجس ، والأحلام السابحة بحُرية مطلقة فى أرض الشياطين .

وأعطى كل منهما ظهره لظهر أخيه ، وفى بقية من القوة تركها لرجائى الدوار والخمار ، أخذ ساق رفيقته فعصرها عصراً بين قدميه ، فتأوهت بحركة ، وضحك هو الآخر بأخرى ، وانقلب كل منهما يواجه الآخر بحضن مفتوح . .

وفى اللحظة التى تراءى كل منهما للآخر هوت الأذرع الممدودة كأنها انشلّت ، واتسعت الأحداق النائمة كأنها تنظر إلى عين دامية من عيون الذعر والارهاب . . وتحطمت بمعاول من حديد قلوب الاثنين .

ونفرت بوجه ذابل أصفر فوقفت فى جانب السرير ، وتجمَّع هو فناداها بصوت مذبوح متهدم تحت أثقال شيخوخة مفاجئة : . . « سهام ! »

وبدا الشبه بينهما الآن أكثر ما كان ، فى الوجه والقامة وفى لون الشعر والعيون ، وبالأخص فى الصفرة التى صبغت وجهيهما فجعلتهما كوجوه الأموات .

ودخل فى نفس اللحظة مرسى وعباس ينفضان عن جسديهما فضول الماء . .

ووضع كل منهما قبلة على الخد الأقرب له من خدَّى سهام . . وضحك كل منهما لمنظر الاثنين . . . فقد بدا لهما أنه منظر مغرمة ومغرم تنازعا فى الوقت الأخير ! . . .

وفى الواقع كانت سهام واقفة كالصنم مستندة إلى قائم السرير ، تاركة جسمها لمن يشاء كما يشاء ، محدقة بعين لا تطرف فى وجه رجائى ، وبنظرة فيها ذلة واسترحام ، وخضوع تام لما عساه أن يكون .

وكانت كل عين من عينى رجائى الذي عاش طول

حياته يطأ أعراض الناس بلا رحمة ، فيها صورة لطاغية مسترقّ أسير ، لم يُعْدِ له حول ولا قوة ، ينظر بلا أمل ولا رجاء إلى شرفه الممرغ بقسوة فى الأوحال . .

وكل محاولة انقاذ أو انتقام كان معناها عند رجائى مضاعفة الفضيحة . . . معناها شارة سوداء خالدة لا تمحى أبداً من الجبين ، معناها وصمة دائمة لا تغسلها لا قوانين الأرض ولا شرائع السماء . . .

وفهمت سهام بكل سهولة معنى نظرة اليأس التى شاعت فى وجه رجائى ، اليأس من إنهاء المنظر على غير ما كان مقدراً له فى حساب الأقدار . . . فتقبلت الستين قرشا التي وضعها لها مرسى أفندى فى حقيبتها ، ساكنة ، ولم تحاول لا أن تعترض ولا أن تساوم ، وسمعت وكأنها تمثال من الرخام الألفاظ التى همس بها مرسى أفندى فى أذنى رجائى بصوت ضاحك ، سمعتها وكأنها فى أذنها قطرات من صهارة الرصاص

« من فضلك لما تحب تعمل غرام ، إبأه اعمله ف بيتكم وعلى حسابك . . بونجور . . ! »

وانتهت ليلة حظ ، وانتهت معها قصة . . قصة ستظل بلا ختام ، لأنه لا يدرى أحد إلى الآن من كانت سهام بالنسبة لرجائي ، ولا من كان رجائى بالنسبة لسهام . .

وكل ما عرفه مرسي وعباس والشاويش عطية أن سهام لم تعد إلى الكوخ أبداً ، وأن رجائى لم يعد أبداً لا للعمل ولا للبلاج .

والرمال نفسها لم تبح بشيء فى هذه المرة ولم تنطق الأمواج ! . .

تحت القباب

عبثا حاولت أن أفتح شفتي صديقي عن سر ذلك الشيب المفاجىء الذى اكتسح رأسه أعمر ما كان بسواد الشباب . كلما كنت أستدرجه إلى ذلك السر كان يكسر جفنيه ، ويرسل عينيه إلى منظور مبهم فى ماض عميق تموج فيه الذكريات ، ثم يبتسم لى ساخراً ، ويدّعى مرة أنه شيب الهرم ؛ وهو الذى لم يشرف بعد على الدنيا من سفح الثلاثين . !! وأخرى يزعم أنه خضاب أبيض يتقى به العين ؛ ويتخذه زلفى إلى وقار الشيوخ . وأحيانا ، حينما يكون بمعزل عن روحه الضاحكة ، كان يستسلم للسكون ، فاذا ألححت عليه غاضبا ، قال لى « صبرا » ثم أردفها باشارة من يده ، وحوّل الحديث بمهارة إلى مجرى جديد .

تعودت هذا من صديقى وظننت أنه سر مقدس ، دفنته

يد محبوبة تحت هذا اللسان الأمين ، فاختارت له كفنا لا يرثّ وقبرا لا يبلى، وآليت على نفسي ألا أحدث له من سره ذكراً.

وفى منتصف مايو الماضي كان صديق يضيفنى فى قريته ثلاثة أيام. وفى اليوم الثالث منها ، وبينما كان قرص الشمس الأحمر يتهيأ للغروب عرض عليّ صديقى أن أصحبه إلى زيارة قصيرة بين المقابر ، فدهشت لهذه الرغبة الفذة فى مثل هذا المغرب الرهيب ، وتصورت المقابر حينئذ مستغرقة فى نومها الخالد المحزن ، وتخيلت القبور القروية التى لا تكاد تبين من الأرض فى صمتها الرائع ، وتهاوت بخيالى تلك الجيوش الجرارة من تصورات الطفولة ، وتلك الأشباح الهائلة التى حدثونا يومئذ أنها تسكن خرائب القبور ، وتجوس خلالها فى الظلام .

ذكرت كل هذا فانصرف شعورى عن هذه الزيارة ، وحدثتنى نفسى أن الحياة تكفينا أحزانها القاهرة السليطة ، ومن الظلم أن نسوق أقدامنا المتعبة للبحث عن حزن خيالي جديد .

قلت : يا صديقى انى أكره زيارة القبور فى الليل ؛

قال : أتخاف ؟

قلت : ربما !

قال : سأحدثك هناك حديثاً شائقاً ، سأقول لك كيف اشتعل فى رأسى ذلك الشيب العجول .

قلت : بهذا الثمن وحده أقبل .

وسرت معه وقد غلبنى على خوفى حب الاستطلاع وفتنة الشىء المجهول .

* * *

هل يمكن أن يبتسم إنسان فى هذه البقعة الموحشة والدنيا كلها تحت جناحى هذا السكون الحزين ؟

أينما وضعت القدم أحسست تحتها عظاما تتحطم ، وحينما أرهفت الأذن سمعت الأنين الصامت الذي يملأ هذه القبور منذ هبط عليها أول نزيل ، وكلما نشرت منخريك شممت رائحة الموت ، الرائحة المخيفة التى طالما اختنقت بها الضحايا وسالت على عذباتها الأرواح .

وقفنا إلي ضريح تعلوه قبة جثمت فى أقصى المقبرة كأنها راع جريح لا يستطيع أن يحمى قطيعه من هجمات الذئاب . فقال صديقى إنك الآن فى حضرة « سيدى أبو الليل » ولى هـذه القرية ، وصاحب الكرامة فيها وحاميهامن الجنة والناس .

أعجبتنى من صديقى هذه الديباجة فقلت خاشعاً مبتهلا : « الفاتحة إلى روحه » وبينما كنت أقرؤها خيل لى أنى أرى فى عينى صديقى آية من السخرية ، وفى ابتسامته الضئيلة عاصفة شك مكنون ، ولم يترك لى لحظة أعتب عليه فيها بل أنشأ يقول فى صوت ساحر قوىّ متسق النبرات .

« منذ عام كانت توجد قطعة أرض موات فى وسط حقل مزروع على مقربة من هذه المقبرة . كان صاحبها ينثر فيها الحب فلا ينبت ، وكان الزرع المحيط بها ينمو سقيما أصفر ، ثم يخضر قليلا قليلا كلما ابتعد عن هذه البؤرة الميتة . حار صاحبها فى أمرها . وتحدث الناس فى شأنها ، وأخذت شتى الآراء فيها تنبت بغزارة فى مختلف الرؤوس . قال

قوم أنها شؤم ، وتناقل آخرون عنهم هذه الرواية فزادوا عليها أنها مسكنٌ ليلى لروح شرير ، وادّعى طائفة أنهم رأوه بعيونهم على صور متعددة ، فمنهم من رآه امرأة تسرّح شعرها المجعد بمشط من غصون الشجر ، ومنهم من رآه رجلا تتوهج تحت جبينه عيون من نار ، ومنهم من رآه قزما يدب على الأرض ثم يعلو ويعلو حتى يضرب برأسه صفحة السماء . وفريق منهم زعم أن الروح قد تحدث اليهم فما إلى فم . وأولئك دافعوا عنه بحماسة ، وأنكروا أنه روح من أرواح الشر ، وأقسموا جهد إيمانهم أنه ملك كريم ، أو ولى من أولياء الله الصالحين هاجر من تربة دنسة ، فى مكان مجهول ، لا يستطيع أن يتصل فى رجسها بأنوار الله وأرواح الملائكة !.. وأحاديث الناس حينما تبدأ عن شىء مجهول لا تعرف نهاية . وكان يشرف على هذه الأرض شجرتا توت ، ذات يوم تسلق احداهما طفل فأخذ يأكل من ثمرها الحلو حتى امتلأ بطنه فاعتراه قىء ومغص شديد ، ويومئذ ازداد الناس إيمانا بقداسة الروح ، وقدسوا من أجله

شجر التوت وحرموا على أطفالهم ثمره ، أو تأخذهم كرامة « الشيخ » فاذا هم فى الأجداث هامدون ! . وتناقل الناس « كرامة » أخرى أن امرأة عاقرا طوفت سبعا بهذه الارض فى فجر ليلة النصف من شهر شعبان ، فلما أدركها الشهر التاسع ولدت لزوجها الشيخ العقيم طفلا لم تر العيون نظيراً له فى الجمال ، غير أنك تسأل عن مكان هذه المرأة وعن وجود طفلها فتتعب قبل أن تحصل على جواب !. ومن يوم أن راجت هذه الكرامة تدفق سيل الحديث عن هذه الأرض وعن روحها الكريم ، جامحا يطمر تحته كلما صادف من لسان معترض أو عقل طليق من سجن الخرافات والأوهام .

أصبحت البيضة دجاجة ، ومات آكل التوت ، واختفت الشياطين من هذه البقعة الطاهرة وقامت على أنقاضها الملائكة ، والطفل الذى تمخضت عنه المرأة العاقر تكلم فى أقل من عام ، والأم نفسها بعد أن كانت واحدة أصبحت نساء لا عدد لهن يزرن هذه الأرض المقدسة عاقرات ،

وينقلبن منها حاملات بأذن الله . وبركة الشيخ ، ومن غير طب ولا دواء ! . .

هالتنى هذه القصص وخفت أن تصبح فتنة للناس ، فخطر لى أن أسخر من هذه الأرض سخرية تظل إلى جانب قصصهم أمثولة مضحكة على عجز ذلك الروح الموهوم ، فلما عسعس الليل تسلحت بسكين وفأس وقضيب من حديد ، ثم ذهبت وحيداً إلى هذه الأرض أبحث عن دفينها لأرى رأيه فيما يشيعونه حوله من مزاعم الزور ، فان لم يجبنى جوابا شافيا هشمت رأسه الخبيث . وإن لم أجد أحداً ركزت لهم فى مركز الأرض عصا ، ونشرت عليها قباء ، وجللت القباء بالنجاسة ، وجعلت من كل هذا نصبا يضحك من أول قروى يطالعه فى الصباح !

وكانت الليلة مقمرة يجول فى سمائها سحاب خفيف ، تارة يختفى وراءه القمر ، وأخرى يظهر من خلاله مرسلا إلى الارض أشعة ضعيفة تزيد فى رهبة الليل البارد وسكونه الجليل ، وعند ما أتيت الأرض شعرت فى صدرى بضيق لم

أدر أين مأتاه . قلت فى نفسي إنه أثر الليل والوحشة والسكون والتفت حولى عفواً فاذا شجرتا التوت قائمتان على حوافى الحقل كنذيرى شؤم وسوء ، وبدا لي أن شجاعتى رقّتْ حينما حدقت فى ظلهما المظلم . وخيل إلى أني أرى خيالا يضطرب هناك ، لقد كان رأسى مزدحما بتلك القصص الباطلة ، وكأنما تركت هذه القصص على صفحته الحساسة صدى ، تردد الساعة فى عقلى بقوة . وانتشرت منه فى جسمي قشعريرة باردة . خجلت من نفسى وحدقت فى الظل بقوة وإرادة فلم أجده شيئا . أخذت احتفر الأرض بالفأس حتى وصلت فيها إلى عمق بعيد . وإذ أطعن الثرى مرة خيل لى أن الفأس قد صادفت جسما صلبا أحدثت فيه رنينا أجوف كأنه صوت مطرقة على صندوق فارغ . طعنت موضع الصوت من الأرض بالسكين ، ثم حاولت أن استلّها فلم أستطع ، وسمعت حينئذ عواء ذئاب يحمله الهواء من قرب ، فتصبب جبينى عرقا ، وأدركتنى قشعريرة أخرى أقوى من الأولى . وهيأ لي الجبن والوهم أن الفأس والسكين قد صادفتا جمجمة مدفونة

فى هذه الأرض ، فخانتنى الشجاعة كلها ، وتذكرت أخيراً أننى انسان ، وأنه مهما يكن هذا الراقد فله حرمة وله على أخوته الأحياء حق الأكبار والأجلال . نفضت يدى من تراب القبر وكنت الآن فى الحفرة إلى وسطى ، ثم تركت السكين حيث هي آية للناس على أنى عبثت بالأرض من غير أن يصيبنى سوء ، ثم قفزت بقوة أريد الخروج من الحفرة فأذا يد قوية تجتذبنى من أسفل الحفرة فتردينى فيها

ووثب قلبي من صدرى هلعا ورعبا ، واستحال دمي كله إلى عرق بارد هطل من جبينى كالمطر ، ودار رأسى ثم لم أعد أشعر بشىء

أفقت فى الصباح على حركة قائمة وأصوات مدوّية ، وعلى مقربة مني جمهور كبير من الناس . فذكرت ببطء وجهد كل ما مر بى فى هـذه الليلة السوداء . ووجدت نفسى بعيدا عن تلك الحفرة التى احتفرتها بيدى ، وفى جوارى نعش ينقضون من الحفرة عظاما ويضعونها فيـه . كانت كل عظمة تقبّل من ألف شفة ، وتوضع على ألف

رأس قبل أن يحتويها النعش المكشوف .

تحسست جسمي فلم أجد فيه أثرا لأذى إلا أن ثوبي كان مقدوداً من الأمام قداً مستطيلا . من فعل هذا ؟

فكرت كثيراً فعرفت سر هذه اليد التي اجتذبتني بالأمس وضحكت من نفسي ضحكا طويلا . لقد غرست السكين في الأرض فمرت في حاشية ثوبي ، فلما قفزت فعلت بي ما فعلت ، وتركت لأولئك الناس بابا جديدا ينفذون منه إلى كرامة فاقت سواها من كرامات الروح المقدس !

وعند ما فرغوا من جمع العظام . تركوا الحفرة كما هي وحملوا النعش على أعناقهم ، وساروا في طريق المقابر ، وقد شغلتهم عني سكرة الولاية ونشوة الفرح بهذا الولي العظيم ، وتصور أن النعش وقف بهم في الطريق مرات ! ! ثم جرى بهم في الطريق مرات وهذه آية الولاية في نظر الفلاح ! !

وجدت نفسي وحيدا في لحظات فأقبلت على الحفرة أتعرف معالمها ، فوقعت عيني على هيكل بندقية أكل حديدها

الصـدأ ، وعدا على خشبها السوس . عجبت لهـذا الأثر وتولتنى رغبة حافزة لأفحص تراب هذه الأرض فى هدوء . أخذت أنثره بين أصابعى حتي عثرت على سبع كرات من المعدن علتها طبقة سميكة من الـكدر والصدأ . كانت هـذه الـكرات هيا كل أزرار ، جمعت فى ذهنى كل هذه الآثار ووضعتها على هيكل العظم ، فتألف منها شبح جندى أجنبى رمته صدفة تعسة إلى هذا القبر الغريب . وعلى هذا الفرض بحثت من جديد فاذا صفيحه مربعة من معدن لم أشك لحظة فى أنها عقدة حزام ، وعندئذ لم يبق عندى شك في تاريخ هذا القديس الجديد ! !

بعـد ساعة واحدة كنت أنظر إلى المرآة فأرى فى قرارها شبحا متوج الرأس بتاج من شعور بيضاء !

وبعد أسبوع واحد كان « الجندى المجهول » تحت قبة عالية يحج إليه ويزار ، وتقبل أعتابه وتقدم إليه النذور . . . ما أشد سخرية القضاء بعقائد الناس ! !

بعد أسبوع واحد كتب « لجورج » أو « جون » أو سمّه باى اسم تشاء أن يصبح « سيدى أبو الليل » صاحب الكرامة والمعجزة وتقف أنت على قبره فتقرأ له الفاتحة فى ذلة وخشوع ! !

وفى هذا المصنع ياصديق خلق معظم الأولياء . .

obeikandl.com

الساعة ١٢

وقفت على باب السجن ، وفى يدها صرّة من الشاش الأبيض فيها برتقال . . . تنتظر ساعة الظهر ، أى ساعة الافراج عن زوجها شعبان . . .

تأخر البرتقال فى هذا العام ، أو هكذا خيل لزينب ، وكانت تسرح به فى الطريق . . وفى هذا الوقت المبكر من فصل الخريف كانت كل بواكير البرتقال فى السوق ما زالت خضراء . . .

ومن أجل أن تحصل على عدد من البرتقال الناضج ، تستقبل به أوبة زوجها من الظلمة والحرمان والأسر الطويل منحت زارع البرتقال قبلة ، وهو أخذ منها بالقوة ثلاث قبلات

وفرّت زينب من قبضة القروى الوقح كالظبى المذعور

وتركته نشوان .

كان زوجها شعبان يحب البرتقال ، وكانت هي تحب البرتقال من أجل شعبان ، وكان البرتقال هو الذكرى الكبرى التي وصلت بين الحبيبين بآصرة الحب ثم بآصرة الزواج ...

وقد حدث هذا منذ عامين ...

وكانت زينب يومئذ فتاة طائشة ... ولم يكن لابتساماتها عدد . وكانت لها سنٌّ ذهبية بين أسنانها اللؤلؤية كأنما وضعتها هناك تميمة من شرّ العيون . وكان منديلها الأسود المعصوب بمنتهى العناية حول وجهها الأبيض المستدير ، يضاعف من بياض وجهها المشرب بحمرة العافية وعصير ألف وردة من أنضر ورود الربيع ...

ولم يكن منديلها وحده هو الأسود ، فقد كان الأشد سواداً منه مقلة عينها الناعسة ، وثوبها القصير المنحسر عند ركبتيها عن ساقين عاريتين تجلت في صبّهما قدرة الله . . .

وفي كل القهاوي والنوادي التي كانت تمر بها على

شاطىء النيل بالمنصورة « بمشنّة » البرتقال ، لم يكن يعلو على صوت حجارة النرد ضاربا بعضها فى أقفية بعض ، إلا صوت شبشب زينب ذى الكعب العالى حائراً بين قدمها والأرض . ولم يكن فى الوقت نفسه أجمل من ضحكات زينب العالية الملحّنة بمهارة ، إلا صوتها هي وهى تنادى بملء نفسها . . .

« إللى أحلى م الشربات يا برتقان ! »

وكل الناس كانوا يشترون منها البرتقال فى الشتاء والتين فى الصيف ، لا شوقا إلى البرتقال والتين ، ولكن شوقا إلى المتعة بزينب ، وبضحكاتها الندية ، ووجهها الجميل ..

وكانوا جميعا يتركون لها تحديد الثمن كما تشاء ، والمساومات التي كان بعضهم يلجأ اليها كانت مساومات صورية الغرض منها الاحتفاظ بزينب أكبر زمن مستطاع ..

وكانت الأيدى أحيانا تترك البرتقال والتين خلسة وتمتد إلى يدها هى ، ثم إلى ذراعها وهي تكسر عينها ، وتضحك ، وتتكىء بملء حنجرتها على النغم الأخير . . وكانت أسعار التين والبرتقال ترتفع بشكل خيالى فى هذه الأحوال ! . .

ولم يكن يوجد بالمنصورة أحد من رواد القهاوى لايعرف زينب ، أو قل لم يفكر فى زينب ، تفكيرا طويلا مرة واحدة على الأقل . . . من عسكرى النقطة الذى كان يسمح لها بارتكاب كل المخالفات ، إلى حضرة صاحب السعادة . . الحكمدار !

ومع ذلك وبالنسبة لمختلف الأقاويل التى كانت تحيط بحياة زينب ـ وهذا طبيعي ـ وللوسط المضل الذى عاشت فيه ، يمكن أن يقال إن زينب كانت فتاة عفيفة ، وإنها زفت عذراء لشعبان الجزار .

وخلعت يوم العرس ثوبها الأسود ، ومنديلها الأسود ولأول مرة بدت فى ثوب ملوّن كانها النحلة الخضراء .

وعلقت « مشنة » البرتقال فى سقف البيت كتذكار

وجلست تفكر فى شعبان ، تفكر فيه وحيدة ، لأن بيت شعبان لم يكن به أب ولا أم ولا أقرباء ، وكانت سعيدة بهذه الوحدة ، في أرض الأحلام .

وحتى عجينة الحناء عجنتها بنفسها ، وتخضّبت بها بلا

مساعد . ولما جاءت «أم ابراهيم الماشطة» ورأت أن لا عمل لها فى هذا المنزل خرجت منه غاضبة تقول :

« وَىْ من هذا الخضاب يابنية . . . وىْ كأنه العندم . . كأنه الدم . . . كأنى بزفافك زفافا إلى قتيل ! »

وبكت زينب ، وكانت تحب زوجها شعبان ، تحبه كأنه ملِك . ونعيب البوم كان أرحم على سمعها وقعا يومئذ من صوت أم ابراهيم . . .

ولما دخل عليها شعبان ، همّت به وقلبها يخفق خفقة الطير الذبيح . . ولم يكن شعبان وحده ، بل كان وراءه جند وناس ومن حوله ضجيج وعجيج .

كان شعبان قد طاوع نداء التقاليد فى طائفته ، فأثبت رجولته فى ليلة العرس وأثناء الزفاف ، ولكنه بالغ كثيرا فى البرهان ، ففلق رأس رجل مسّ زينب بفكاهة ، وكان لا بد له أن يجرح أحداً فى هذه الليلة لأتفه الأسباب ! نزولا على حكم هذه التقاليد .

ولما بكت زينب على صدره ، شجّعها بحضن ، وقال لها

وهو يسلم نفسه للجندى : « انتظرينى . . الحبس للجدعان ! »

وظلت زينب تنتظره عامين . . تنتظره عذراء .

وعادت إلى مشنة البرتقال ، وإلى المنديل الأسود ، وإلى الثوب الأسود يغطى ساقيها إلى ما تحت الكعوب ، وكان للسواد الذى كانت تلبسه بالأمس مزهوّة لاهية ، معنى أنساها ابتساماتها السخية ، وضحكاتها ذات النغم المهلهل .

وامتلأ صوتها شجنا وهى تنادى بصوت لا يسمع . .

« إللى أحلى م الشربات ! . . »

ومر العامان ولم تنس أبداً شعبان ، واحتفظت بثوب عرسها لتلاقيه يوم أوبته فيه . .

وانزلقت يد أحد المشترين يوما فمست يدها كالعادة فانتهرته صارخة ، وفرت منه بمشنة البرتقال وفى عينها نظرة السبع السجين .

ومن هذا اليوم أخذ كثير من الناس يكرهون طعم البرتقال ، ويسألون عن أسعاره الحقيقية فى السوق ! . .

ومع ثقل التضحية التي شعرت أنها مقبلة عليها وهي

تقدم ثغرها لزارع البرتقال ، يوم الافراج عن شعبان ، تقدمت راضية إلى المذبح ، لأنها كانت تهيّء ليوم عرسها الجديد ، نفس المقدمات التى هيأها القدر ليوم عرسها القديم ، البرتقال الناضج الأصفر الحلو تطعم منه شعبان ، وهو يطعمها من قلبه وروحه وكيانه كله ، وتكون له كما يكون لها من دون الناس جميعا ، الأم والأب والزوج والصديق والحبيب.

ووقفت بباب سجن « قره ميدان » تنتظر ساعة الظهر بفرح يغمرها حتى القرار ، وقفت فى ثوب عرسها القديم كالعروس مقبلة على يوم الزفاف . . .

وعاودها مرحها الأول فأخذت تبتسم للجميع بسخاء ، وكان شاويش السجن يطرد عن الباب كل المنتظرين هناك بكلمة جارحة ، أو بضربة من عصاه . . إلا زينب ، كانت حينما يقترب منها ، تبتسم له فيضحك لها وشاربه الطويل يرقص ، ثم يلتفت للذين تركهم وراءه يطالبهم بالابتعاد عن الباب ، وبالصمت والسكون ، ويلقبهم أثناء ذلك بأبناء الكلب وأبناء الدروز . !

أية رهبة تبعثها إلى النفس تلك الكوّة المربعة فى باب السجن ذى اللون القاتم ! والخشب الثقيل ؟ . الكوة التي تفتح بحساب وتغلق بحساب ، وتقف بين النور والحرية وبين مئات من العيون والقلوب كأنها جفن الزمان .

لقد أوشك قلب زينب يثب من صدرها لما دقت ساعة السجن اثنتي عشرة دقة ، ثم فتحت الكوة المغلقة وخرج منها أول السجناء الأحرار .

ولم يكن هو شعبان . .

وخرج السجين الثانى وقوبل هو كذلك بالزغاريد .

ولم يكن هو الآخر شعبان . .

وانتابها قلق ، وأدركت فى هذه اللحظة أنها لا تعرف كيف تزغرد كباقى المستقبلين . .

وعزّ عليها أن يحرم شعبان وحده من فرح الزغاريد . فقالت لعجوز بجوارها ، وعنقها يتطالّ إلى باب السجن حتى ليكاد ينخلع : —

« والنبى ياخالة تبقى تزغرطى لما يطلع شعبان . . »

وفتح باب السجن فى هذه المرة كله . .

وعرفت زينب من مأمور السجن بعد ساعة أن الذى خرج منه فى نفس هذه المرة كان هو شعبان . .

وكل الجنود الواقفين بباب السجن حيوا شعبان بالتحية العسكرية . . لأنه كان جثة فى نعش ! . .

جثة قتيل هوت على رأسه قدر مملوء بالماء الساخن وهو يشتغل فى مطبخ السجن فى اليوم السابق ليوم الافراج . .

جثة ضائعة محمولة على أكتاف أربعة جنود الى المقابر الخيرية لأن شعبان لا أهل له ولا أب ولا أم ولا أقرباء . .

ومع ذلك فقد كانت زينب تظن انها أحلّت نفسها من لعنة العجوز الماشطة ، يوم كسرت وراءها معجن الحناء ، ونذرت ألا يمس كفها طول عمرها خضاب .

ونثرت زينب صرة البرتقال على قبر زوجها . .

وعادت إلى المنصورة لتنادى على البرتقال الأحلى من الشربات ! . .

ولكن بلا نغم ولا صدى ولا روح . . .

الشيخ عفريت ..!

كان الشيخ عبد المتعال ابراهيم فى نظر زملائه بالأزهر شابا كفيف البصر على الرغم من مكابرته فى هذه الحقيقة المرة بالحاح .

كانت عيناه مفتوحتين ، وكل شيء كان يستطيع الدخول فيهما ما عدا النور ! . . ولكن الله أعاضه عن بصره حسا دقيقاً وشعورا مرهفا وأنفا يشم الزجاج ، وأذنا تسمع دبيب النمل ! . .

ولئلا يجعل من حركات جسمه شاهدا على عماه ، حكم بمنتهى السيطرة أصابعه فلم تعد تعبث بشيء كما تفعل أنامل العميان ، وحكم رأسه فلم تعد تهتز وتدور على غير شيء كما تفعل رءوس العميان .

وكان الشيخ عبد المتعال يسكن مع شاب من زملائه

ومواطنيه القرويين يدعى الشيخ طنطاوى فى مندرة بحارة الجنبكية بشارع المغربلين ، وكانت دراستها فى مسجد المرداني بالدرب الأحمر ، وكانت المسافة بين الدار والمسجد يختصرها طريق مظلم مهجور ، اعتاد الشيخ عبد المتعال أن يقطعه فى الفجر ذهابا إلى المسجد ، وأن يقطعه فى أول الليل إيابا منه ، وكان يحفظ كل شبر ، وكل موقع حصاة فى هذا الطريق ، فكان يمشى فيه بلا عصا ، متحاشيا أن يمشى فى سواه فيصطدم بشىء أو أحد فيتهم بعماه ، وكان يقود فى هذا الطريق من يصحبه فيه من زملائه المبصرين ، ضاربا لهم برهانا لا شبهة فيه على أنه مبصر مثلهم ، بل ومبصر أكثر مما يبصرون !

وكان لديه برهان آخر يحاجّ به من يماريه فى بصره ، ذلك أنه كان يصافح الرجل لأول مرة ، فيعرفه بعد ذلك من ملمس يده ، وينـاديه باسمه ولقبه ولو غاب عنـه عدة أعوام . . .

وبرهان ثالث أنه كان يحاسب زميله الشيخ طنطاوى على الحبة والدانق فى كل شىء من مطالب البيت ومرافقه

ـ إن كان يمكن أن تُسمى باسم البيت مندرة لا تدخلها الشمس ولا يعرف طريقها الهواء ، بإيجار شهرى مقداره ثمانية قروش ـ فقطعة الصابون كان يحاسبه فى ثمنها باعتبار عدد المرات التى استعملها كل منهما فى الغسيل ، وبقايا أرغفة الجراية كان يسأله عن كيفية التصرف فيها إذا لم تستعمل فى اليوم التالى فى عمل الثريد . بالاختصار كان يحاسبه على كل شىء ، ويراقبه فى كل شىء ، ويناقشه فى كل مليم ، إلا فى غاز الاضاءة ، فقد كان الشيخ عبد المتعال يدفع نصيبه فيه باعتباره منتفعا بالنور بلا مساومة ولا شجار كما دفع بنفس السهولة نصيبه فى ثمن المصباح !

وطالما لمس بيده أشياء فأبدى إعجابه بألوانها ولكنه كان أحرص دائما من أن يحدد هذه الألوان . . .

وكانت أقصى إهانة توجه إليه من زملائه أنه ضرير ولطالما هان عليه أن يرمى بالكفر ولا يرمى بعماه . .

وفى إحدى الليالى ناداه الشيخ طنطاوى وكل منهما متمطٍّ فى عنجريب مصنوع من سعف النخيل ، عليه حشيّة

قذرة من القش ، ووسادة من القطن أقذر ، وغطاء رخيص متسخ من صوف الجمال :

— لعلك تذكر انه كان لى عليك ثلاثة قروش تعريفة ياشيخ عبد المتعال

قال الشيخ عبد المتعال :

— أجل ياشيخ طنطاوى أذكر ذلك ولا أنساه ، وموعدنا إن شاء الله يوم الخميس القادم فى قرافة المجاورين.

قال الشيخ طنطاوي : وتذكر يومئذ أنها أصبحت سبعة قروش !

قال الشيخ عبد المتعال :

بغاث الطير أكثرها فراخا

وأم الصقر مقلاة نذور !

قال الشيخ طنطاوى :

صقر أو غراب . . إنى أريد السبعة القروش ؟ ولست مكلفا أن أنتظر حتى تتهاوى عليك صدقات المحسنين فى المقابر يوم الخميس .

قال الشيخ عبد المتعال . . : صبرا فستنالها ، إن الله مع الصابرين ! قال متى ؟

قال : ضاحكا حينما أعترف لك بها !

قال : أو تمارى فيها ؟

قال : أجل لست شيخ إسلام لأتغدى غدوة واحدة بأربعة قروش !

قال الشيخ طنطاوى : فانك إذن تشك فى الحساب ؟

قال الشيخ عبد المتعال : ليس ما أحس به نحو حسابك شكا ، إنما هو يقين !

قال الشيخ طنطاوى :

المسألة بسيطة . لقد اشتريت البطاطس بقرش صاغ .

قال : لا بأس . .

قال : والبصل بنكلة . .

قال : معقول . .

قال : والطماطم بثلاثة مليمات !

قال : ضحك منك البائع ومع ذلك فليكن . . .

قال : والحمامة بخمسة قروش . .

قال الشيخ عبد المتعال وقد جلس فى سريره جلسة الفزع

— أية حمامة ؟ . .

قال : هى الحمامة التى خطفتها القطة السوداء . . .

قال : أتعنى القطة التى لا يراها أحد ، ولا يسمع مواءها أحد ، وتدخل من الباب والباب مغلق بالقفل والرتاج ... دون هذا يا أخى « ويبحلق » لك الذئب الذى أكل سيدنا يوسف الصديق عليه أفضل الصلاة والسلام ! !

قال الشيخ طنطاوى : يبحلق أو لا يبحلق انك اشتركت فى أكل البطاطس المطبوخة بحساء الحمامة ، والحمامة نفسها ليس الذنب ذنبى أنك أعمى لم ترها بين مخالب القطة السوداء.

قال الشيخ عبد المتعال ، وقد هزته تهمة العمى حتى القرار !

لعلك إذن كنت معتمدا على عماى وأنت تكشف غطاء الحلة كل دقيقة مرة ، لتأكل جناح الحمامة مرة ، ولتأكل وركها مرة ، ولتأكل صدرها أخرى . . . الله ، الله . . . !

يالها قطط تفتح الحلل وتأخذ ما فيها وهى على النار، يالها قططا تأكل لحم الحمام وترمي عظمه فى صفيحة الزبال . .

وتكرّع الشيخ عبد المتعال تكريعة ضخمة أسمعت سكان سيدنا الحسين ، ثم شفعها بضحكة هائلة ، وبثلاث ضربات بيده على بطنه ، ثم استأنف يقول :

بطاطس بالحمام . . . اللهم انى أحمدك وأحمد الشيخ طنطاوى حمد الشاكرين ، اللهم أدِمْها نعمة عليه وعلى قططه السوداء واحفظها من الزوال . . . ثم عيّث بيده قليلا فى الأرض حتى عثر بمركوبه ، فأخذ فردة منه ثم قام فهوى بها فجأة على رأس زميله الشيخ طنطاوى وعلى غير انتظار وعدة مرات . . .

وبهت الشيخ طنطاوى ، فلم يقو على دفاع ، ولكن دهشته كانت أقل من خجله لأن ما قاله الشيخ عبد المتعال كان صحيحا كله ، إلى آخر حرف فيه ؛ فقد كان يمتحن الحمامة على النار بين الحين والحين ليرى أتم نضجها أو لم يتم وكان فى كل مرة يعجز تماما عن مقاومة الاغراء الذى كان

يملأ أنفه من رائحة الحمام المطبوخ ، فما زال بها قطعة قطعة ، حتى أكلها كلها ، وأخفى بقايا عظامها فى صفيحة الزبال حتى لايسمع زميله صوت العظم وهو يتحطم بين شدقيه .

وعاد الشيخ عبد المتعال بعد أن شفى غليله إلى سريره ، وترك خصمه صامتا يشك لأول مرة فى عين الشيخ عبد المتعال هل هي ضريرة كما كان يبدو عليها ، أو أن بها قبسا من النور . . .

وعادت إلى ذكراه فى هذه اللحظة ، بينما كان الشيخ عبد المتعال يتمطى فى سريره ويضحك ويغنى :

عجب عجب عجب عجب قطط سود ولها ذنب

عادت إلى ذكراه كل الأشياء الضئيلة التافهة التى كان يستغفل فيها زميله ورفيقه وابن بلده الشيخ عبد المتعال ، سواء فى الطريق أو المسجد أو على طبلية الطعام ، وكل حركات السخرية والاستهزاء التى كان يشترك فيها معزملائه على حسابه ومن وراء قفاه ، وندم الشيخ طنطاوى ، ووجد لألم مرارا كيب الشيخ عبد المتعال على رأسه وفوق ظهره

راحة وسلاما فى نفسه ، لأنه عدها عقابا بسيطا سريعا من الله العادل يغنى عن عقابه الأخروى البطىء الشديد . . .

ودمعت عيناه ، ثم نادى الشيخ عبد المتعال :

أنا بينى وبينك الله يا شيخ ، ادفع ما تريد أن تدفع ولعنة الله على الظالمين . . .

وأجابه الشيخ عبد المتعال :

لا أدفع إلا نصيبى فى البصل والطماطم والبطاطس ، أعنى ستين فضة تعريفه . .

قال الشيخ طنطاوى باكيا .

حرام عليك والله العظيم يا شيخ عبد المتعال . . . إنك تنسي حساء الحمامة الذى أكلت به البطاطس ! . . فأكمل القرش الصاغ وعلى الله العوض فى الباقى ، وعلىّ الاحتمال

قال لن أدفع لك أكثر من الستين فضة تعريفه ولا مليم وليكن هذا كفارة عن ذنبك ، ودعنى أنم ، وقم فأطفىء المصباح . . .

وأشرق نور جديد على ذهن الشيخ طنطاوى ،

وتأكد الآن أكثر من أى وقت آخر ، أن الشيخ عبد المتعال ضرير . . . ضرير : . . ضرير حتى العظم ، وأنه لم يره وهو يأكل الحمامة ، وإنما كان يفترض ، ويستنتج ، وقد صادف بافتراضه واستنتاجه وجه الصواب .

أطفىء المصباح . . .

لكن المصباح لم يكن موقدا فى هذه الليلة ، لأن الشيخ طنطاوي لم يجد به غازا ولم يجد فى هذه الليلة ضرورة للنور ! . .

وأجابه فى الحال :

مصباح إيه يا مولانا ؟ . . المصباح ما هو مطفى من أول الليل يا شيخ عفريت ! !

وكانت الصدمة قوية فى هذه المرة ، وأقوى من أن تصمد لها براهين الشيخ عبد المتعال على بطلان عماه ، فسكن فى سريره لا يتحرك ونسى الحمامة والسبعة القروش ، وهدأ هدوء الأموات . .

واستمر الشيخ طنطاوى يقول :

يا شيخ عبد المتعال ، عليك سبعة قروش . . . هل تسمع ؟ . سبعة قروش ، سآخذها ولو من حبوب عينيك الاثنتين ، إن كان فيهما حبوب . . . وموعدنا يوم الخميس فى قرافة المجاورين !

ولكن الشيخ عبد المتعال لم يكن هناك ، فقد تناوم ، وعلا شخيره حتى أسمع هو الآخر سكان سيدنا الحسين ! !

obeikandl.com

دم فرعون

وقف كالمشدوه ينظر تارة إلى الذبيحة ، وتارة إلى يديه المخضبتين بالدماء . . . وكل شيء كان يلف فى رأسه ويدور .

لما خرج ابراهيم من داره فى الصباح كان أسعد فلاح فى القرية ، له دار جديدة ، وأم حازمة وطيبة ، وخطيبة صغيرة وحسناء ، وعنده جاموسة وراءها عجل رضيع فى جبينه غرة بيضاء كغرة العجل آبيس ، وخوارها العالى من الفجر يملأ جوانب الدار .

البيت والأم والخطيبة أشياء جميلة جداً فى حياة الفلاح ، وترفّه عنه كثيرا من مظالم الرق الذى يعيش فيه ، ولكن الجاموسة وحدها هي أجمل وأقدس وأحب ما فى هذه الحياة . . .

الجاموسة فى الريف هى عنوان الرخاء، وهي رحمة السماء، وهى الوطن والسكن والأب والأم والأخ والصديق للفلاح ! .

هو وأهله جميعا يأكلون ويكتسون بأقل من جنيه فى الشهر، ويطعمونها هى وحدها بحوالى الجنيهين ! . .

ويدعو الفلاح على أهله إن عصوه بالحزن والداء والخراب فى غير مبالاة ولا تفكير ولا شعور بضيق، ولكن عند ما تعصاه جاموسته فى الساقية أو المحراث، يحاذر كثيرا أن تكون أبواب السماء مفتوحة، فيدعو لها — بدل أن يدعو عليها — بالبركة والهناوة وطول العمر والبقاء !.

ولما يفقد الفلاح أحدا من أهله يحزن عليه ويبكى، ويلجأ إلى الله، وينسى مصابه فى أيام أو شهور، ولكن عندما يفقد الجاموسة بحادث أو داء، قلبه كله يتحطم، وعقله كله يضلّ، ودموعه كلها تنضب، وإيمانه القوى الراسخ فى رحمة الله يدكّه زلزال . . . ولا ينسى أبدا ! . .

وتذبح الجاموسة النافقة في الريف فتباع لحما على

الفلاحين ، بسعر أرخص قليلا من سعر اللحم فى السوق . .
وحينما تباع الجاموسة لحما تفقد أربعة أخماس ثمنها وهي حية ،
لانها فقدت سحرها وسلطانها على النورج والساقية والمحراث
وكل رطل يقطع من لحمها كأنه قنطار يقطع من جسد صاحبها
المفجوع . . .

ولقد كان خوار الجاموسة فى هذا الصبح البهيج الممتلىء
بأريج أزهار الفول ، كزغردة العرس فى آذان ابراهيم . .
كان خوارها الثانى فى طلب الحليل .

وظل ابراهيم حتى أشرقت الشمس ، يتقلب على القرن
فى مضجعه المكون من قش السمار ، ويرسم الأمانى على
هذا النغم الحلو ، فى صفحة خياله الصافى ، بريشة فنان موهوب
أماني العرس والعروس ، والبنت والولد ، والمستقبل الطيّع
الجميل . وكلها مشرقة من مطلع السعد واليمن فى جبين
جاموسته بين قرونها الطوال ! . .

وأسى واحد كان يحزّ يومئذ فى قلبه ، أنه سيودع اليوم
جاموسته التى عاشرها أكثر من عامين والتى سيبيعها اليوم

ويشترى من ثمنها مهر عروسه وكل هذه الآمال والأحلام.

لم تكن الجاموسة ملكا لابراهيم . . . كان يشاركه فيها بحق النصف أيوب بك ، عمدة القرية ، وسريّها ، ووجيهها المرهوب.

رجل قصة حياته هى قصة ثروة جمعت بالسحت والسرقات المقنعة ، والربا المضاعف ، والطغيان بلا رقيب ، ودخول بيت القرّى كالمنقذ ، والخروج منه بآخر قطرة من الدم ، وآخر خيط من خيوط الرجاء .

كان يقرض المال بمنتهى السهولة ، وبأيسر الشروط ، ويعطى عملاءه فوق المال ابتسامات . وفى سنة او سنتين يكون القرش قد أصبح عشرة قروش . ويرى الفلاح محصوله محمولا بالرغم منه إلى مخازن أيوب بك ، وهناك . . حشرة مبهمة تأكل نصفه ، حشرة بأسنان جهنمية ، ونصفه الآخر يأكله القبانى والكيال تحت رعاية وإشراف شيخ الخفراء . وقبل أن يفيق من الصدمة يغدعليه محضر من المحكمة رجل مطربش بنظارات ذات إطار معدنى أبيض ، وتحت

إبطه حافظة أوراق ، ويركب حماراً ، وله ملابس قذرة من العرق والتراب ، فيتغدّى عنده ، ثم يعلنه ببيع أرضه فى المزاد.

أما الأرامل اللواتى بلا طين — كأم ابراهيم — فكان أيوب بك يعطيهن العجول صغارا ، يربينها ، ولهن فيها النصف عند ما تكبر وتباع . وكان يعطيهن أيضا معها ابتسامات ! :

والفلاح بطبعه شكور . وابتسامة عدوّه الانجليزى فى يوم من الأيام ، أنسته نصيبه من شعاع الشمس ، وحظه من كبرياء الأحرار !

وعند ما كان أيوب بك يبيح أرامل القرية ما على جسور أرضه من العشب والكلأ ، يرعين فيه عجوله الشابة ، كانت قلوبهن تمتلىء بالبشر والدعوات الطيبة وعرفان الجميل . .

وكنّ يسرقن فى بعض الأحوال ثمر القرع والبامية المزروعة على حوافى هذه الجسور ، وأيوب بك يسكت ويبتسم ، ويتجاهل ، ويسد أذنه بكرم عن شكاوى الحراس

الذين لهم وحدهم تتصاعد لعنات المساكين . .

ويحدث فى أحد الأيام أن تعدو العجلة بلا عقل على شجرة قطن ، أو تأكل بلا حق عوداً من البرسيم ، ومن هذا اليوم تعمل فى دائرة أيوب بك قائمة خسائر، والأرقام تكبر فيها بمرور الأيام كالعفاريت ، وعند ما تباع العجلة يضاف إلى هـذه القائمة ثمن اللبن والسمن الناتج ، ويكون سمسار البيع دائما هو جزار أيوب بك بلا حاجة للذهاب إلى السوق . . . وتخرج الأرملة فى العادة بعد مراجعة القائمة بدقة ، إما بجلدها وإما بدين بسيط تسدده عملا كلما دعيت إلى العمل هى وأولادها إن كان لها أولاد ! .

والويل للضعيف . . .

لـكن أم ابراهيم كانت من نوع آخر . كانت بنت خمسين عاما من البؤس والتعاسة والعيون الدامعة والقلب المفطور . . والمحن علمتها أشياء كثيرة ، فكانت ترعى عجلتها دائما على جسور الفلاحين الصغار ! . .

وعاشت هى وابنها بعيدا عن مخالب أيوب بك . .

عاشا كلاهما فى القرية بلا صوت ، يبسمان للناس معا ، هو يبسم لزملائه فى الحقل ، وهى تبسم لجاراتها فى الدار ويعملان للقوت والحياة معا ، ويشقيان للقوت والحياة معا ، ويكفلان بالعقل والروح وعرق الجبين هذه العجلة الناشئة ويجلسان على مربطها وهى تأكل عشاءها . هى تجفف بحنانها وأقاصيصها عن جبينه عرق الشقاء ، وهو يغسل عن قلبها وضر الوحشة والترمّل بألحان الناى . .

عاشا بلا عدو ولا حاسد ، يرقبان الأمل مشرقا عليهما من العجلة ، ناميا بالعام كلما نمت هى بالأسبوع ، والأمانى الجميلة ، أمانى الأم لولدها ، وأمانى الشاب لبيته المستقبل ، تتسع وتتسع وتملأ الدار والحقل والأيام بالبشر والضحكات

عاشا سعيدين على الرغيف الخشن ، وعلى الفجلة الخضراء ، وعلى البامية الفارغة ، وعلى اللحم فى المواسم والأعياد أى عند ما تنفق جاموسة فلاح ، وتباع بخمس ثمنها للقرويين ! . . .

وعند ما أتمت العجلة حملها الأول ، وأخذها المخاض ،

أضيف إلى قائمة الطعام فى الدار ، اللبن الرائب بلا قشدة ، وعند ما يدخل اللبن دار الفلاح يخرج جزء كبير من مظاهر الشقاء . لأن اللبن وراءه السمن ، والسمن وراءه الكفاية من الذرة والثياب ، وإصلاح الدار ، والأفراح والليالى الملاح .

ولذلك كان ميلاد العجل الصغير عيداً فى دار ابراهيم .

كان نصف اللبن بحكم الشركة لأيوب بك ، وقد حاول أن يترك نصيبه لأم ابراهيم ويحاسبها عليه فى يوم التخالص ، فرفضت بمنتهى اللطف والأباء . . .

وحاول أن يبيعها قيراطا من البرسيم بثمن رخيص ، ومؤجل إلى أى أجل تشاء . فرفضت كذلك بمنتهى اللطف والأباء . . . ودعت له بعمار البيت وطول البقاء !

وفى كل مرة كانت ترفض فيها شيئا ، كان شاربه يهتز ، وكانت عينه تزداد ضيقا علي ضيق ، وكان صدره يمتلىء بالغيظ والحقد والبغضاء .

لأن هذه المرأة كانت أول قروى تجنب الوقوع فى

شركه المنصوب .

وكان العيد الثانى فى حياة ابراهيم ، يوم خطب عروسه « فواكه » من أبيها سليمان .

وكان عيده الثالث فى هذا الصباح بالذات ، وهو خارج من الدار فى موكب ، تسير فى طليعته الجاموسة وعجلها ، ومن خلفهما هو وأمه وصهره سليمان ، ذاهبين جميعاً إلى مقر أيوب بك ، ليبيع ابراهيم حظه فى الجاموسة وابنها ، ويدفع صداق العروس ، ويعقد عليها فى نفس المساء ، حيث أعدت فى داره معدات المولد النبوى الشريف ، ووليمة ريفية دعا إليها الأقران والأصدقاء . . . أى رجال القرية وشبانها أجمعين . . .

ومشى ابراهيم مزهوّا بالأمل ، فخوراً بزنده القوية التى أصبح عليها من الآن ، أن تحمي عروسه من أثقال العمل فى الحقل تحت الشمس والمطر والشقاء . . .

* * *

فى دم الفلاح المصرى حقيقة عصارة أربعين قرنا من

الذل والخضوع ، والانتقال بسكون من سيطرة سيد قديم إلى سيطرة سيد جديد ، لكن فى عروقه أيضاً قطرات من دماء عدة فراعنة ، وأخرى من دماء بضعة أنبياء . . . وقد عرف الصبر الطويل والنوم على المحن ، ولكنه عرف كذلك يوما ما كيف ينفجر انفجار البركان . . .

والناس الذين تعودوا الفزع من منظر الدم ، وقفوا اليوم كلهم حزانى في جوار ابراهيم ويداه مخضبتان بالدم .. دم الجاموسة وعجلتها . . . دم الأمل القتيل . . . دم المستقبل المنتظر . . . دنيا ابراهيم كلها ودنيا أمه تصبح كحطام الفلك الغريق !

عز على أيوب بك أن يخرج من تحت يده عبد ، وفى قلبه أمل لم يهدر ، وفى حياته رجاء لم يتحطم ، وفى عينه شعاع من نور . .

ونادى سمساره الجزار . . . وكان على استعداد .

وقال لابراهيم : تريد القسمة إذن ؟

قال ابراهيم : نعم

قال : وستتزوج اليوم ؟

قال : أجل .

فنادى جزاره من جديد وشارباه يلمعان وعيناه تضيقان ، وشفتاه تنفرجان عن ضحكة شيطان :

— متولى . . .

— أفندم سعادة البيه

— اذبح هذه الجاموسة وعجلها معا ، واقسمها نصفين ، فاعطنى حقى وأعط الباقى لابراهيم . . . إنه فى حاجة إلي اللحم اليوم ، فليأخذ منه ما يشاء !

وعادت من جديد إلى شفتيه ضحكة الشيطان . . .

وامتلأ الجو بالذهول . . .

وامتلأت الأرض بدم الذبيحتين . . .

ومن قمة الجبل انحدر ابراهيم إلى قرار المستنقع وتبددت أحلامه فى لحظة وفقد الثروة والنشب والعروس وأمانى الليالى الطوال ، فنادى أمه . . . أمي . . . فلم تلب أمه النداء !

وغمس يديه فى الدم السائل ، ثم وقف كالمشدوه ينظر تارة إلى الذبيحة التى فقدت سحرها ، وفقدت أربعة أخماس ثمنها ، وتارة إلي يديه المخضبتين بالدماء .

ولما انسلخ جلد الذبيحة للكبرى كله ، وانفصل عن لحمها ، وانفصلت عنه الحوافر ، أخذ ابراهيم حافراً منها فرفعه إلى شفتيه ، وأطلت من عينيه قطرة من دم فرعون ، ثم رفع الحافر بين يديه ، ولا أحد يتوقع ما يحدث ، فهوى به على رأس أيوب بك فقلقه نصفين . . .

وانتقم ابراهيم فى لحظة ، لألف دمعة ، وألف يتيم ، وألف بيت خراب .

ثم رمى بالحافر المخضب إلى ما تحت قدمى صهره ، وناداه ووجهه كوجه أبى الهول . . .

« آدى مهر فواكه يا عمى سليمان ! . . »

فى كف عفريت

جلست رسمية إلى مرآتها تنظر إليها مرة ، وإلى رسالة نشرتها بين يديها مرة أخرى ، فيمض بين شفتيها خيال ابتسامة ، نصفها قلب محطم ، ونصفها كبرياء جريح . بالأمس كانت تأتيها رسائل « شفيق » فواحة بالعطور ، فى كل حرف من حروفها قصاصة من روحه تحترق ، وفى كل كلمة من كلماتها قطعة من نفسه تذوب ، وبكل سطر من سطورها أمل من آماله يحيا وأمل يموت . ولكل رسالة منها نعيم خاص تحملها إليه أجنحة ريشت فى خياله من حب وتضحية وإخلاص . أما اليوم . . ، فما أبعد الفرق ! ! ورقة جافة لا أريج لها ولا طيب ، لا أمل فيها ولا ألم ، لا حياة ولا روح .

« أنت فتاة فى كف عفريت ، لا تصبرين على طعام واحد ! وما دمت تتوهمين لرسائلك قيمة لا أصل لها فتعالى

خذيها غدا (الخميس) فى الساعة الثالثة بعد الظهر بالملتقى المعهود ومع هذا رسالتك الأخيرة وهى الوحيدة الموجودة معى الآن . . . »

« ش »

سرح خيالها فى هيكل الأسى فأخذت تحدث نفسها وهى تسعى فى ظلماته وتطوف . . . هل يمكن أن تكون هذه الكلمات لى أنا ومن لسان شفيق ؟ هل أصبحت لا أساوى فى عينه كلمة العتب الرقيق ، وأسلوب الرجل المهذب ؟ حتى الحبر يستغليه علىّ فيكتب لى بالرصاص ، يوم جرح كتب لى من دمه يقول :

« فداك دمي كله . هذه القطرات ذكرى تفان ووفاء »

من يدرى ؟ لعله لم يجرح فى سبيلي كما قال ، ولعله لم يكتب لى بدمه كما زعم . لعله دم ذبيحة أكل الوحش لحمها ، واتخذ دمها وسيلة للتضليل والخداع ! كم كنت يومئذ طفلة عمياء .

ويوم أهديته طاقة الورد فردها لى بعد أيام ، أعواداً

ذاوية الكأس والتاج ، ثم كتب لى معها يقول :

« حرام أن ألقى إلى الأرض بهذا الرفات المقدس . كفنيه أنت بيديك ، وادفنيه فى أصيص ثم دعينا نتخذه ذخيرة يزكو فى رعاية سرها حبنا الخالد » .

رباه ؟ إذا كان هذا كذبا فأين الصدق فى العالم ، وكيف يكون ؟ كان يضحك مني يومئذ والقلم فى يده يزوّر به هذا الوجد المزيف والهوى الكذاب . كنت يومئذ ألعوبة فى يده ، ككل فتاة تحلم أنها من قلب حبيبها فى الذروة ثم تصحو لتجد نفسها لا فى الذروة ولا فى القرار .

امتلأت عيناها بالدموع فتركت الرسالة من يدها ، وأفرغتها في منديل . ثم تنهدت من صدر مثقل وعادت تنظر إلى المرآة . « عيناى عيناى ، وشفتاى شفتاى ، ووجهي كله هو هو الوجه الذى طالما عنت له القلوب واتجهت له الأبصار .. محال أن تخدعنى مرآتى . وهؤلاء شهودى ما زالوا كلهم أحياء ، ولو شئت لاتخذت منهم ألف حبيب ، فيهم من هو أجمل وأرق وأكثر ذوقا ورجولة منه بكثير ؟

فهل يكون جزائى على وفائى له أن يصفعنى بهذه الرسالة الجارحة فيتهمنى بأنى فتاة لا قلب لها تتجر بعواطفها كل يوم فى سوق ، ويرد لى رسائلي لمجرد طلب مبهم من غير أن يبدي أقل رغبة فى أن يحتفظ بها كأنها لا تهمه فى قليل ولا كثير ، ويكتب لى هذه اللطمات كلها بقلم الرصاص . .

لو أني فقط أستطيع أن أنتقم ، لو أن فى قدرتى أن أسفك دمه بيدى ! لو أني استطيع أن اقتلع حبه من قلبى فأسحقه تحت قدمي كدودة حقيرة ، ثم أرميه فى وجهه بزراية وأنفة واحتقار ! »

كادت تمزق منديلها الحريرى بين يديها وأسنانها غيظاً وغضباً ، ثم أهوت برأسها على ساعدها باكية بكاء العجز والصغار .

« أبداً ما أحببته ولا هويته ولا خطر لى في بال ، من هو حتي أختصه بقلبي من دون الناس أجمعين ؛ إن وجهه كوجه القرد ، وعينه كعين الحمامة ، وله آذان كآذان الحمار . تفو . ! سوف أستخلص رسائلي منه ثم الويل له يومئذ .

سأمحو ذكراه من قلبي، سأمزقها، سأحرقها، لن أدع له في قلبي من أثر ولا وجود . . . النذل، السافل، الحيوان ! !

وقبل أن تهدأ هذه الثورة في رأسها الهائج تناولت المسكينة رسالتها المردودة، الرسالة التي كشفت لها عن خلقه السافل. فأعادت قراءتها، ولها على كل جملة وقفة وخجلة وتفكير.

« شفيق :

« أخبرني أبي بالأمس أن شابا من عائلة طيبة وفي مركز حسن قد خطبني إليه، وأنه لم يرد أن يبت له في القبول حتي أراه ويراني، وأرضى به فيزفني إليه. لأبي هذا الأسلوب الناعم دائما حينما يريد أن يملي عليّ رغبة من رغباته. لذلك سكتّ ولم أسأله حتي عن اسم ذلك الخطيب، ولو سألته لكان جوابه نظرة نسر ثم سكوت طويل.

ستتم هذه المقابلة كما قرر أبي في الساعة السابعة من مساء الخميس القادم بعد أربعة أيام. سأتقدم له كسلعة بائرة، وفي يدي كأس من الشراب، هكذا تقضي تقاليد الأسرة،

ويجب علينا كلينا أن يحكم كل منا على رفيق حياته بنظرة واحدة ، نظرة تحيط بالماضى والحاضر والمستقبل ، وتهتك الحجب وتنفذ إلى مستودع الأسرار ، نظرة واحدة كأنها من نظرات الأنبياء ! أليس الرق المكشوف ياصديق خيراً من هذا الرق المكسوّ بثوب مخضب من دم الحرية ، المزركش بوشى لماع من ضلال العرف والعادات ؟؟ ألم يكن خيراً لنا أن نباع ونشرى فى سوق العبيد سعداء فى قناعتهم بالذل ، ناعمين فى رضاهم بالمنزل الدون ، فرحين باللقمة السائغة والكلمة الطيبة ، والأمل الدائم فى أن يكون أسيادنا الجدد خيراً من أسيادنا القدماء ، ألم يكن هذا خيراً لنا من أن نعرف الحرية . ونذوق طعمها ، ثم نساق فى ظلها إلى وكر مجهول لا ندرى أنقر فيه على ريش ناعم ، أم نشوى على أسياخ من تحتها نار ، ونطالب باسمها أن نسعد زوجا من قلوبنا التعسة ، وأن نهذب أولاداً من عقولنا المسممة بوباء الشقاء ، وأن نعمر بيتا من أرواحنا المعذبة ، بالهناءة والنعيم ؟ ؟

قلت لى مرات إنك سوف تعيش حراً لا تتزوج ،

وأنا أعلم عن آرائك فى هذا الأضراب ما لا يدع لى أملا فى أن أصل حياتى بحياتك . كأن القدر ياصديق كان ينطق من خلال شفتيك بهذا الحكم القاسى على مستقبلى وعواطفى وشبابى . وكأنما كان رضائى بهذا الحكم نوعاً من حلاوة الروح تحت طعنة السكين . لماذا لم أحاول إقناعك قبل أن ينفذ السهم ؟ لا أدرى ، فقد كان كل مايدور بخيالى أننا سنظل فى فردوسنا الهادىء ، مادمنا أطعنا الله ، وعصينا الشيطان وعفنا الثمر المحرم .

كم كانت لذيذة تلك الساعات القلائل التي قضيناها على شط البحيرة معا نناجى هوانا البرىء فى غفلة الرقباء ، وكم كانت مسعدة تلك الرسائل الكثيرة التى تبادلناها على البعد هدايا قلب إلي قلب ، وتحايا روح إلى روح ! وكم كانت معزّية تلك الاماني الغوامض الحسان فى أن نحيا دائما ليشرب كلانا فرح الحياة من عينى أخيه ! . . .

وا أسفاه ياصديق . . . قضى الله أن تضل القافلة فى منتصف الطريق . فأنت مضرب عن الزواج بعناد وإصرار ،

وأنا أمام أبي يجب أن أتزوج، وأمام العرف يجب أن أخلص لزوجي، وأمام ديني يجب أن لا أفكر في أحد سواه، وأمام قلبي وضميري لا أدري ولا أتصور كيف أصبر على العيش في حماية رجل سواك.

لا بد أن تخضع كل هذه القوى التي تتجاذب كياني لقوة منها واحدة، ولو أن الأمر لي أو لك لجعلنا السيطرة للقلب والعواطف. لكن تأمل: هناك سواك وسواي أبي وأنا أحبه وأطيعه، وهناك شرفي وأنا أجله وأصونه، وهناك ربي وأنا أعبده وأخشاه. ولو كان العرف وحده هو الذي يحول بيني وبينك لجعلناه سخرية، ومثلنا به تمثيلا...

أنا حائرة ياصديق لا أدري ما أقول.

إذا شئت أن تحتفظ برسائلي ذكرى لغرامنا المهصور فهي لك، أنا لا أخشى عليها شيئا بين يديك، وإن رأيت أن لا فائدة لها عندك فردها إلي... بنفسي أن أقول لك اذكرني، لكني أعلم أنك أرق وأنبل من أن تنسيك إياي الليالي والأيام.

وداعاً . . . من كل قلبي الكسير وداعاً يا شفيق ! »

« رسمية »

فرغت رسمية من قراءة هذه الرسالة واستعادت فى ذهنها رد شفيق :

« أنت فتاة فى كف عفريت ، لا تصبرين على طعام واحد ، وما دمت تتوهمين لرسالتك قيمة لا أصل لها ، فتعالي خذيها غداً فى الساعة الثالثة بعد الظهر بالملتقى المعهود . . . . . »

فانفجر قلبها ذلا وخجلا ، وودت لو انشقت لها الأرض فابتلعتها واختفت عن الوجود . ثم آوت إلى مقعد طويل فتمددت عليه هاتفة بنفسها :

« ما أتعس المرأة ! يوم تسلم قلبها تسلمه إلى وحش ، ويوم تخفض رأسها تستسر على هامتها الذباب ! ! »

وقدرت فى نفسها عندئذ فقط أى خطر يتهددها من بقاء رسائلها فى يد هذا الوغد الدنىء ! !

***

فى الساعة الثالثة من مساء الخميس التالي كان مقصف حديقة الحيوانات عامراً بخدمه ، وشخصين يجلسان تحت خميلة منفردة فى ركن من أركانه القصية ، فتى وفتاة ، تظلهما من وقدة الشمس غصونها المورقة المزدهرة . وتفصلهما مائدة مدت عليها كؤوس الشاى وأكواب اللبن وأطباق الحلوى وتحجبهما عن أنظار الخدم والعمال شجيرات الخميلة . كانت البحيرة أمامهما يسبح على صفحتها المطمئنة سرب من البط الملون يغطس فى الماء حتى لا يظهر له أثر ، ثم يطفو على السطح فى مرح ونشاط . ويمتد شطها الآخر كاسيا بشجره الأخضر المتصل ، وزهره المختلف الألوان . وكان المنظر كله يغري أشد الالسنة ثرثرة بالهدوء والسكون والتفكير .

لكن فتيينا كانا غارقين فى حديث أقرب إلي أحاديث الساسة منه إلى مناجيات العشاق . فأما الفتاة فقد ظل أمامها الطعام والشراب لم تمسسهما يدها . وأما التى فكان أحيانا يأكل ويشرب ، وأحيانا يفتّت الخبز بين أصابعه ويرمى بفتاته إلى الماء ، ويتبع بعينيه سرب البط وهو يختصم عليه ،

وهو بين هذا وذاك متحدث أو سامع .

قالت رسمية :

— ألا يكفيك أن تأخذ رسائلك ثمنا لرسائلي ؟

قال شفيق وابتسامة التهكم لا تفارق شفتيه :

— رسائلي ؟ مزقيها إذا شئت ، إنها لا تهمنى بشيء .

— إذن ما ذا تريد ؟

— لا شيء فى الواقع . ثمن زهيد لمثل هذا الأثر الغالى

— كن صريحا وقل لى ماذا تريد ؟

— أريد عن كل هذه الرسائل التى تملأ هـذه الحقيبة قبلة واحدة !

لو طلب إليها شفيق هـذه القبلة قبل يومين لأجابته إليها ، ومدت له يدها بشوق ووجد واندفاع . أما اليوم فمع أى خزى وعار طافت فى رأسها هذه الكلمة ؟ لكن الرسائل ! يجب أن تفتديها بأى ثمن ، وهو بالأمس نال من يدها ألف قبلة ، فلتزد واحدة ، إنها لن تحرق يدها ، ولن

تنقش عليها وشما يبقى عليها سبة الحياة !ثم شيء آخر..لا بأس أن تشعر بوقع شفتيه على جسمها لآخر مرة . قبلة واحدة تتخلص فيها من غرامها المنكود ، ثم تنساه . . . تنساه إلى الأبد !!

وبعد تردد لم يطل قدمت له يدها ساكتة فأمسك بنصرها ببرود ، وأخذ ينظر بشغف إلى خاتم فيه .

— حقا إن فصّه بديع ، لا بد أن يكون كلفك ثمنا غالياً :

عقدت جبينها بغيظ ، ونتشت يدها من يده بقوة ، وصاحت به غاضبة :

— ألهذا أعطيتك يدى ؟

— لأى شيء إذن ؟

— لكى تقبض ثمن وحشيتك ، وأدفع أنا ثمن الضعف والطيش والتهور .

ضحك شفيق ضحكة عالية ثم قال :

— للقبلة إذن ؟ لا .. لا .. ياسيدتى لست أريدها من

يدك . رسائلك أغلى من هذا بكثير . أنت شديدة التواضع دعيني أقطفها من شفتيك !

ثار جنون رسمية فأخذت تسب وتلعن ولكن في صوت خفيض ، وبعين شكرى بالدموع . ثم طفقت ترجو وتتوسل وتذكره بأيامه الأولى أيام أن كان رجلا . لكن شفيق كان كأبى الهول تتكسر لعناتها وتوسلاتها على صمته الأخرس ، وابتسامته التي لا تذبل ولا تتغير ، ويده اللاهية بفتات الخبز ترميه بانتظام إلى صفحة الماء .

— أصخرة أنت ؟

— بل أشد قسوة !

— يا وحش !

— كلنا كذلك ياسيدتى إذا واتتنا الظروف !

— أليست فيك بقية من شرف ؟

— تركتها بالمنزل فعفواً ! معذرة ياسيدتي أنا على موعد ، فهلا تريدين أن تتسلمي الرسائل ؟

أخيراً أيقنت رسمية أنها تضرب في حديد بارد ،

ووجدت أن لامناص من أن تدفع هذا الثمن الأثيم .
فأغمضت عينيها ومدت وجهها وقالت هات الرسائل !

— اقترب قليلا . فما أظنك تريدين الفضيحة ! فاقتربت إليه مقسمة فى نفسها ألا تعود إلى هذا المكان الدنس الذى شهد خزيها وفضيحتها على هذه الصورة المزرية ، ثم انتظرت فم شفيق الذى طالما أحست بلمسه الناعم الحار على ظهر يدها ، انتظرت هذا الضاغط اللين ، وفى نفسها ثورة . ليس شفيق من القبح بحيث صورته لنفسها بالأمس ؟ ثورة أحست أنها ثورة غضب مشوب بلذة ! .

ولكن شفيق لم يتقدم ، ومرت لحظة ثم لحظات . . .

ففتحت عينيها بقلق ، وصاحت به ألا تريد ؟

— هل تظنين قبلة من ثغرك تستحق هذا العناء كله ... لقد كنت أهزأ بك ياحمقاء ؟

طعنة أخرى أشد من كل طعنة سواها أحست بها المسكينة تصيبها فى البقية الباقية من كبريائها الجريح . فقالت وقلبها يتمزق قهراً وأسى :

— اشكرك فاعطنى الرسائل ..

— أية رسائل يا آنسة . هاهى الحقيبة فارغة ليس بها شىء . ألم تكتبى لى فى ذيل كل رسالة « مزق خطابى بعد قراءته » ! لم أفعل شيئاً إلا انى أطعتك ؟ فهل تعدين هذا ذنباً ؟

اتسعت حدقتاها ، فى رعب هائل ، وعرفت أنها امام نذل مسلح لن تنال منه وطراً ، فصاحت به فى عاصفة يأس وقنوط :

— انشرها على الناس ، افضحنى ، إفعل ما تشاء ، انت وحش ... انت دون ... سوف احتمل كل شىء إلا كلمة اخرى من لسانك الساقط : . . جرسون !

— افندم

— حسابك كام ؟

نظر الجرسون الى شفيق ثم وجه الخطاب اليه قائلا .

— اربعتاشر قرش ياسعادة البيه ؟

فرمت على المائدة ريالا ، فتردد الخادم فى أخذه ، ونظر إلى شفيق مرة أخرى كأنه يستنجد به من هذا

الموقف الغريب . فلم يتحرك شفيق ، وقال وهو يرمي الفتات مبتسما .

— خد منها يا محمد : مفيش تكليف ! !

ووهبته رسمية قرشين ثم صرفته ، وأخذت الأربعة الباقية ، وبمنتهى قوتها قذفت بها وجهه ، ولولا أن زاغ منها لاصابته بجرح ، ثم شفعتها بحزمة من رسائله كانت فى حقيبتها وانصرفت عنه ودمها يغلي فى عروقها غليان انفجار...

وفى الساعة السابعة من نفس هذا المساء . كانت رسمية تستعد لتقابل خطيبها بهيكل فتاة لا قلب لها ولا كرامة ولا شعور . . من يدرى لعله يستطيع أن يأخذ لها من قلبه فيحيي الموات من قلبها القتيل ، لعله يستطيع أن ينسيها غرامها المجرم وحبها التعس ، لقد جربت اختيارها ، فلتجرب كيف يختار لها القضاء .

وحينما أزفت الساعة دعيت رسمية ، فقامت بسيقان متخاذلة ، وحملت الكأس وسارت فى سبيلها كأنها قربان يتقدم إلى مذبح . وحينما ولجت الباب وجدت أمامها وجه

أبيها يبتسم لها تشجيعاً، ورأت هذا الخطيب المجهول يوليها ظهره وكان يرتدي معطفاً بديع التفصيل فحدثت نفسها وهي ترخي أجفانها حياء ورعباً :

ما أشبه الليلة بالبارحة ؟ كلاهما طويل القامة عريض الألواح !. ياله من فأل سيء ! لكنها غريقة، وما خوف الغريق من البلل ؟

وتقدمت بالكأس حتى أصبحت أمام خطيبها وفتحت عينيها بتؤدة لترى هذا الوحش الجديد. فاذا هي . . . وجها لوجه . . . أمام . . . شفيق !

نائب ديروط

دخل النائب المحترم ج. ت. حرم مجلس النواب لأول مرة وهو يرتعش ، وعيناه زائغتان هنا وهناك ، كشخص أول ما عرف التقاضى سيق فى الأغلال إلى محكمة الجنايات!

كان راكبا عربة أتت به من العتبة الخضراء إلى مجلس النواب فدفع للسائق عشرة قروش ، وكانت هذه القيمة قيمة سخية جدا بالنسبة للمسافة ، لأن خيل العربة كانت هزيلة جداً وبطيئة جداً ولا تمشى خطوة إلا على وابل من ضربات السوط .

وأدهش سخاء الأجر لب السائق . فنظر نظرة إلى الراكب ثم إلى القطعة الفضية وبدل أن يشكر ويمضى إلى حاله ، صاح بالنائب المحترم محتجا على تفاهة الأجر ، واحترم النائب المحترم المحيط والظروف والحرس العسكرى الواقف

بباب البرلمان فسد فم الرجل ببقية الريال ...

إن سائقي عربات الخيل في القاهرة كلهم من علماء النفس ويدركون من نظرة واحدة كل أسرار وخبايا « الزبون » ولديهم تسعيرة مضاعفة للعشاق ولأعيان الريف ، ومنذ سنة ١٩٣٠ ضموا إلى أصحاب هذه التسعيرة طائفة جديدة من أعضاء البرلمان :

وأعضاء البرلمان المصرى سنة ١٩٣٠ جمعوا كما كان يعرف كل الناس يومئذ من الشارع ومن الزريبة ومن كل مكان ، لأن الذين عملوا هذا البرلمان كانوا مستعجلين ، ويخشون أن يطلع عليهم ضوء النهار ! . . ولم يكن عندهم أشخاص كثيرون يختارون من بينهم أو يفضلون فيهم هذا على ذاك . . . لأن جمهور الشعب كان مضربا عن الانتخاب وعن دخول هذا البرلمان .

وعلى كل حال فان النائب المحترم ج. ت. لم يكن من طراز سنة ٣٠ نفسها بين أعضاء البرلمان ، ولكن من طراز سنة ١٩٣٢ ، لأنه انتخب عن دائرة ديروط عقب وفاة نائبها

السابق وعلى نفس النظام الذى جعل انتخاب النواب كأنه تعيين .

نظر النائب المحترم إلى الجنود الواقفين بالباب نظرة كلها رهبة وإجلال ، ثم حار لحظة أيتقدم شجاعا فيقتحم هذا الحاجز من الكسىّ الحكومية السوداء ، أم يتأخر جبانا فيفوته الموعد المحدود ليقسم يمين الطاعة للدستور كما قيل له من أحد زملائه النواب .

وأخيرا تحكّك بجندى منهم ، فأوسع له الجندى مكانا بالباب وهو ينظر إليه مرتابا أيمسكه على هُون ، أم يتركه يمر لعله محسوب على أحد النواب ؟!

وتركه يمر فى النهاية بلا كلام ، فمر النائب المحترم باسما وهو يحيي العسكرى بمنتهى الخضوع وفى نفسه أن الجندى لا بد عارف أنه النائب الجديد . . .

ووقف على الباب الكبير لمجلس النواب يبحث عن بواب ، فلم يجد إلا سعاة وحجابا ظنهم فى ملابسهم الزرقاء المزركشة من زملائه النواب . . .

وأخذ يحيّيهم واحدا واحدا وهم يردون له التحية بأطراف الأصابع !

واستحقر افنديا ممن رآهم يدخلون الباب ، وقال فى نفسه لا بد أن هذا خادم ، ولكن اتضح له فيما بعد أن هذا الافندي هو وكيل المجلس ، وسأله مترددا إن كان يعرف موظفا فى المجلس يسمى بشاره افندى فلتاءوس . . .

وظل وكيل المجلس يبحث فى ذاكرته عن بشاره افندى فلتاءوس حتى وجده فى النهاية فى ركن مظلم ، فى حجرة صغيرة فى قلم الترجمة ، فى الدرجة السابعة بمرتب سبعة جنيهات بما فيها الدمغة والمعاش .

وسأله وكيل المجلس عما يريده من بشاره أفندى فلتاءوس فأخبره أنه نائب جديد وأنه يريد الاتصال ببشاره أفندى ليحمل له رسالة من قريب له فى ديروط .

ونظر له وكيل المجلس من فرعه إلى قدمه على هذا الضوء الجديد ، فلم يعجبه منه لا زيت العمامة ولا اضطراب القفطان المشوش تحت المعطف البلدي الحقير ، ولا الحذاء الذى تخبّ

فيه قدمه ولا اللحية التى لا عهد لها بمقص الحلاق ، ولكنه مع كل هـذا عده من أنظف النواب الموجودين بالمجلس ، واستبشر بوجوده خيرا لأنه على حاله هذا سيكون مفخرة للحكومة تفاخر بها الشعب المصرى حينما يحرجها بتعداد نقائص الحالة التعسة التى كان عليها معظم النواب . . !

وبكل اهتمام أمر أحد الحجاب أن يرشد حضرة النائب الجديد إلى مكتب بشارة افندى فلتاءوس .

كان بشاره افندى فلتاءوس طول الليلة الماضية ساهرا مع بنت فى أحد بارات عماد الدين ، وكان النوم يغالبه على أجفانه ساعة الأصيل ، وبقية من خمار الزجاجة التى أفرغها فى جوفه ما زال يلف فى رأسه ويدور .

وكان عليه أن يترجم فى صباح هذا اليوم خطبة لأحد النواب ، وكانت الخطبة ثقيلة وسمجة ، فتركها على المكتب وقال لنفسه ان يوما من يوم قريب .

لذلك لما أعلنه الحاجب بأن نائبا من النواب يريد أن يراه دارت مقلتاه فى وجهه واضطرب ، وظن أن الباشا النائب

صاحب الخطبة مقبل عليه يطالبها منه، فزرر الجاكتة، ولبس طربوشه على عجل، وبحث عن الخطبة فى درج مكتبه حتى وجدها فوضعها أمامه وأمسك بكراسة من الورق الأبيض وكتب فيها عدة كلمات انجليزية ثم قطع منها بضع أوراق ونثرها مقلوبة أمامه كالغارق إلى رأسه فى عمل خطير . . .

ودخل النائب المحترم ، وأقبل كلاهما على الآخر كالأسد والثور بعد أن وضع بينهما دمنة فتيلة الخراب ، النائب مشفق حذر ، والكاتب يتنفس تنفس المرتاح ولكنه خائف أن يكون وراء هذا النائب الجديد عمل جديد ، أو نذير جديد .

وأخذ النائب المحترم بشاره أفندى إلى ركن، ثم وضع يده فى فتحة القفطان فأخرج منها مظروفا ثم سأله قبل أن يسلمه إليه :

ـــ حضرتك بشاره أفندى فلتاءوس فأجابه :

ـــ أيوه ياسعادة البيه

فقال حضرة النائب :

« معى لحضرتك جواب توصية من جبريل أفندى فانوس » صراف بلدنا . . . أنا من ديروط . ! »

قال بشاره أفندى :

« آه . . جبريل أفنـدى فانوس ، دا أخويا وحبيبى الروح بالروح . . . حضرتك النائب الجديد بتاعنا ؟ »

وأزيح حمل ثقيل عن عاتق النائب المحترم وظهرت على وجهه وهو يجيبه بالايجاب بوادر الغبطة والسرور ، ثم أسلمه الرسالة وقال له إن جبريل افندي يسلم عليك كثيرا ويوصيك بى ويرجوك أن تأخذ بالك منى دائما ! !

وأمسك بشارة افندى بالرسالة وهو يتمنى لو رأته فردوس التي كانت ساهرة معه بالأمس فى هـذه اللحظة ، مخاطبا بهذا الأسلوب من أحد أعضاء مجلس النواب !

وقرأ الرسالة وقدم مقعداً للنائب المحترم ، ثم طلب له فنجالا من القهوة ، والنائب المحترم سعيد تكاد السعادة تثب من عينيه لهذه الحفاوة بشخصه الضعيف ... وبعد أن شرب القهوة أخرج ساعة من جيبه فى حجم المنبه الصغير مغطاة

بغطاء أصفر شفاف ، ثم ظل ينظر فيها مرة وفى وجه بشاره افندى مرة أخرى . . .

ولحظ بشارة افندى أنه لا يعرف كيف يقرؤها فسأله إن كان لديه ميعاد ؟

قال : ليس عندى إلا حلف اليمين !

قال بشارة افندى ضاحكا : لقد بدأت الجلسة منذ ساعة وقد فات دور اليمين وعلى كل حال فسأتوسط لك عند الرئيس في العفو عن هذا التأخير . !

وقام ليتوسط له لدى الرئيس تاركا إياه يشكر الله على ان هيأ له ظهيرا وحاميا فى هذا الجو الغريب . وقابل بشارة افندى فلتاؤوس الحاجب وراء الباب فقال له :

« اعمل معروف يامحمد اباه خد بالك من حضرة النائب وهو خارج من البرلمان أحسن يدهسه الترموای . ! »

إن هذا نموذج مصغر ولكنه حقيق من نواب البرلمان المصرى سنة ١٩٣٠ . .

باب الخدم

حينما تقول المرأة إنها تريد أن تنسى ، يكون قلبها طافحا بذكرى من تريد أن تنساه . . .

* * *

نظرتُ إلى الوجه الماثل أمامى فى المرآة ، نظرة يأس وحيرة وإلحاد . . . إلى الرأس الأصلع ، وإلى الفود الذى وخطه الشيب ، وإلى العين التى بلا أهداب ، وإلى السطور القبيحة الخط التى كتبتها المحن والتجارب المرة على زوايا الفم وعلى صفحة الجبين . . .

ثم هبطتُ إلى ما تحت الرأس أبحث عن مميزات ظاهرة ، فى القوام أو الهندام ، فلم أجد شيئا يستثير صبوة فتاة فى سن العشرين ، لوجهها جمال الأمانى الحلوة ، ولجسمها نضرة ورق التوت الجديد ! . . .

ربما تكون المرآة من صنف ردىء ، ربما تكون المسألة كلها ضلالا من خداع الأنوار . . كذلك قالت لى نفسى مواسية ، ولكنى لم أكن مغروراً ، فطردت هذه التعلّات ، وأقنعت نفسى أن الذى أغرى هذه الفتاة باصطيادى من الشارع ، إنما هو لمحة فى وجهى — لم أفطن لها — من لمحات الرجولة ، وجاذبية الجنس ، وشهامة الرجال !.

لقد ترددت عشر مرات قبل أن أجيب على نداءات عينها الصامتة المتكررة ، ترددت لأنى كنت أظنها دعوات غرامية موجهة إلى أشخاص آخرين .

وهأنذا فى غرفة نومها ، خالعا سترتى بلا تكلف ، بين المرآة التى تهكم من وجهى بلا رحمة ، وبين سرير من خشب الجوز ، أغطيته كلها فى مثل بياض اللبن ، وكأنها خارجة تواً من يد المكوّاء . . . ومعي فى الغرفة مائدة صغيرة حولها مقعدان ، جلستُ على أحدهما ، وقد صُفّت على المائدة عدة صحاف ملأى ببضعة ألوان من الطعام المجفف والمحفوظ ، وزجاجة وسكي وكأسان ، وعلبة سجائر ،

أى كل الأشياء التى طلبت منى شراءها ونحن قادمان ، وحدوة حصان معلقة على الحائط ، وسجادة رخيصة ولكنها بألوانها الحيّة تشبه لوحة فنان . . .

وكل شىء من حولى يتحدث ببساطة عن ذوق امرأة ، امرأة تتاجر بعرضها وتعيش فى وسط أقل من وسطها الحقيق ، كالأقحوانة النابتة على التل ، المدينة بكل قطرة من عصارتها لسحابة مختلفة من سحب السماء . . .

لقد أصرت على نوع من الويسكى الاسكتلندى الرخيص وعلى سجائر أجنبية مرقومة برقم ٣٣٣ ، بينما كنت أنا ككل رجل تفتح أمامه الجنة فجأة أعرض عليها بالحاح أغلى أنواع الويسكي الفاخر ، وعلبة من سجائر أمير الصعيد ، فتطرد كل اقتراحاتى بحركة عصبية من يدها وقدمها ، وسمة من سمات الضجر والتأفف تشيع فى وجهها ، فتردنى عن معصيتها أذلّ من عبد رقيق . . .

وألقت نفسها فى السيارة علىّ كأنها جثة ، تبحث بين ذراعىّ عن قبس من الحياة ، كأنها تعرفنى منذ عشرة أعوام

وسبقتها إلى الغرفة عند ما خلعتْ ثوبها ومعطفها وعادت ، مظاهرة من الروائح العطرية ، اتسقت بأريجها المخدِّر مع روح المكان ، ومع قميصها الحريرى الذى حجب من جسمها المخروط بمنتهى العناية ما يحجب الضباب الرقيق .

وحيّتني بأصبعين ، فرددت عليها بخمسة ، ثم نادت جاريتها « أنيسة » فقالت لها . . . أنا لست هنا الليلة . مفهوم ؟ . . لا أريد زواراً ، لا أريد أحداً بالمرة . . . وكل شيء فى كيانها كان يتحدث عن شبه عاصفة مكتومة ، والبنت الجارية نفسها ، كان بين شفتيها كلام تريد أن تقوله ، أو لعله اعتراض ، أو استيضاح ، ولكن هيئة سيدتها أوقفت الألفاظ على شفتها فخرجت من الغرفة صامتة وأخذت وراءها الباب . . .

وكدت أحس أننى فى قفص . . أننى سجين مع مجنون . . . ولكن بغير انتظار ولا مقدمات ، إلا نظرة طويلة خيل لى لأول وهلة أنها نظرة احتقار — وكل شيء كان يدعونى إلي سوء الظن — اندفعت مضيفتي إلىّ ،

فزرعت نفسها زرعا على ركبتي بمنتهى السهولة ، ثم مزجت كأسين من الويسكى والصودا ، فأعطتنى إحداهما ، وشربت الأخرى فى جرعة ، ثم وضعت الكأسين حيث كانتا ، وأزاحت بيدها ما تبعثر على وجهها من شعرها المنثور ، ثم عانقتنى فى شبه غيبوبة ، ووضعت قبلة مسكرة طويلة على الفم الذى كان آخر عهده بالقبلات سنة ١٩٢٤ أى منذ ثمانى سنوات . .

إننى رجل فى النهاية ، وهى امرأة . . . ولكل فولة كيّال ! . هذا ما قلته لنفسى على ألحان البلبل الذى كان يغنى فى فؤادى أغنية الهوى والشباب ، ساخرا معى من كل وساوس المرآة . . ولكن وجهها المكمود . . شفتاها المرتعشتان . . عيناها المغلقتان على حلم . . كل هذا لم يكن طبيعيا أبداً ، ويشبه السحب القاتمة تتجول فى السماء فى يوم عيد.

وشربت كأسها الثانية بلا تردد ، وسألتنى ألا أضع لها فى الكأس الثالثة صودا ولا ماء ، وفتحت علبة السجائر فأخذت منها لفافة وأعطتنى أخرى ، وأخذت منها ورقة

« كوبون » فنظرت اليها نظرة ملأت عينها بلمعان غريب ، سرق من روحها نشوة كأسين ، ثم طوتها فى يدها حتى أصبحت كالكرة ، فرمت بها الأرض ، وشربت كأسا واحدة من خالص الويسكى بحجم ثلاث كؤوس . .

وعادت بعد قليل بعينها المتعبة إلى الورقة المنبوذة ، ثم ذهبت إليها بخطوات مترددة ، فالتقطتها من الأرض كالذى يلتقط تميمة ، فبسطتها ثم طوتها بعناية ، ثم نادت . . أنيسة . . أنيسة . . إذا جاء حسن فأعطيه هذا الكوبون ، ولكن قولى له لايعود ، أنى لا أريد أن أراه ! . .

ولما سألتُها من هو حسن ، عادت إلى مجلسها من ركبتى ، فمدت لى خدها وقالت قبّلنى هنا ، ثم مدت خدها الآخر ، وقالت . . وهنا ! . ثم مدت فمها . . ونسيت فى قبلاتها حسنا ، والدنيا كلها ، وما كان ، وما يكون ، كنت كالحمار المهمل الجائع العجوز الذى وضع فجأة فى مخزن القول ! .

وبعد لحظات حالت بين وجهها ووجهى ، ثم حالت

بين جسمها وجسمي ، وانتصبت قائمة ، تتحسس فمها بيدها وتقول : أوه . . . إنك آلمتنى . . . أنيسة ، أنيسة ! . . ونادت خادمها للمرة الثالثة ، ثم أخرجت من حقيبة يدها علبة سجائر فضية ، فأعطتها لأنيسة ، وقالت لها لما يجىء حسن ، أعطيه هذه العلبة ، قولى له إنها هدية عيد ميلاده من « مرجريت » ، وذهبت وفتحت النافذة ، ثم عادت تنظر إلىّ نظرة اللبؤة ، ثم اندفعت إلى سريرها ، فاستلقت عليه متعبة ، وهي تضحك ضحك الثمل المخمور ، وكأنما كان يدغدغها روح شرير . . . ضحكات عالية ومستمرة ، تساقطت لها من عينها دموع كبار ، وإذا الضحك يستحيل إلى نشيج . . . بكاء ثكلى فقدت فى يوم واحد عدة أولاد .

وحاولت أن أسترضيها فصرخت بى . . دعنى . . دعنى يا حيوان ! .

وفى الواقع شعرت فى قرارة نفسي أننى حيوان ، ولكنى حيوان يحس ويرثي وينفر من ذكرى حسن . .

من ذكرى تلميذ فى الثالثة والعشرين من عمره ، من جامعى الكوبونات . هكذا قالت لى وعيناها غرق فى الدموع . .

هو غرامها الأول ، وتحت قبلاته كان قلبها يذوب كالشمع ، وذراعاها ترتخيان كالحبال ، ويشرق فى ظلمات حياتها التعسة كوكب دريّ له إشراق الشمس ، وطراوة القمر . .

كانت تجمع المال ببيع قبلاتها ، وبعثرة عرضها كغلائل الزهر الذابل تحت مواطىء الأقدام ، ونذرها نفسها كل ليلة لأحضان عدة رجال ، ويأتى هو فيأخذ من خزانتها ما يشاء ، لينفق على عشيقات أخريات ، ويعود إليها فى منتصف الليل ليمكث معها ساعة يضربها فيها ويلعنها ويطالبها بالمزيد .

واعتزمت أن تنسى ، وأن تعاقب نفسها على غرام لم ينلها منه غير الذل والعذاب والنكال ، فخرجت إلى الشارع فى هذه الليلة ثائرة على نفسها ، وعلى الدنيا ، باحثة عن

كفّارة ، ناذرة نفسها لأقبح رجل يصادفها فى الطريق .

أقبح رجل ! . .

هذا ما قالته لى بالذات وبنفس الألفاظ ، مغرقة فى بركة من دموعها كل الجمرات المشتعلة بغير أوانها فى قلب رجل مجروح الكبرياء .

كنت أنا زنزانة السجن لروحها الشقية ، كنت أنا آلة التعذيب ، وفشلت فى كل شيء حتى فى أن أكون ممسحة نسيان ! . .

فحينما أسلمتنى نفسها بلا قيد ولا شرط ، كانت تلقى نفسها منتحرة إلى بيت التمساح . وفى الساعة الأولى حينما ألقت بجثتها بين ذراعىّ ، وظنت أنها تنتصر على نفسها أتم الانتصار ، كانت تفكر فى الويسكى الاسكتلندى الرخيص الذى شربته مع حسن ، وسجائر رقم ٣٣٣ ، التى دخنتها مع حسن ، والكوبونات التى كان يجمعها حسن . . . وفى طول الليل كانت من حيث لا تشعر ترى حسن من خلال عيونها المقفولة . وذكريات الليلة كلها كانت صلوات

ترفعها إلى روح حسن ... حسن خيالى جديد ، تقمص لها جسمى بضع ساعات ، حسن مهذب ، لايضرب ولا يشتم ولا يغتصب منها ثمن العرض والحياة . .

وبين ضحكاتها الأولى ودموعها الاخرى كانت نواقيس غرامها القديم تدق فى قلبها مبتدئة بصوت خافت ضئيل ، غلبه العزم على النسيان والبحث عن آلة التعذيب ...

ثم تعالى الصوت الخافت الضئيل قليلا قليلا ، وتعالت هى بصوت قبلاتها المزيفة قليلا قليلا ، تحاول أن تحمى نفسها من هذا النذير المقبل عليها ببطء الليل واطّراده فى ساعة الغروب .

ولكن قبلاتها وأحضانها ومحاولاتها المصطنعة كلها عجزت فى النهاية أن تسامى نذير ضعفها القديم ، فوقفت لاهثة فى منتصف الطريق لهاث الكلاب المجهودة ، ثم انفجرت فى عينها وشفتيها ينبوعا من الدمع والأنين . . .

وظلت دقات النواقيس تعلو فى روحها وتعلو حتى امتلأت روحها برنين الأجراس ...

رنين أجراس وهمية ، تجمع كله فى النهاية فى رنين جرس حقيقى ملأ ارجاء البيت . . هو جرس الباب . . يدق دقات متقطعة على نسق مخصوص . . .

زائر بالباب ، انتصبت قائمة على لمسات يده لزر الجرس ، المرأة التى كانت ملقاة على بطنها فى السرير تبكى وتنتحب ، وتمزق بأسنانها أغطية السرير .

انتصبت قائمة على قدميها ، وقد غاضت فى عينيها الدموع ، وأخذ مكانها ذعر الحيوان الطريد ، فوضعتْ سترتى على كتفى وهى تتوسل إلىّ ... أرجوك أرجوك .. هـذا حسن قد أقبل ! . أنيسة . . أنيسة . . . خذ كل شىء دخلت به ، واذهب ... خذ قرطى هذا ثمنا لما ضاع ... إذهب . . إذهب ولا تدعه يراك . . . أنيسة . . افتحى له باب المطبخ ! . . .

* * *

دخلت هـذا العش من باب الأسياد وعلىّ الآن أن أخرج من باب الخدم ؟ . .

دخلته كرجل وعلىّ الآن أن أخرج منه كحيوان !.

دخلته لأقطف العسل وعلىّ أن أخرج منه مثخنا بجمات الزنابير .

دخلته ممتلئا بآمال شيخ فى ليلة عرس وعلىّ أن أخرج منه بقلب محطم ، وأمل ذاو ، وكبرياء مجروح . . .

لا أمل لى إذن فى أنً أكون رجلا يَعشق ويُعشق ، فلأكن إذن حيوانا ينتقم لنفسه بالموت ويموت . . . هكذا قلت لنفسى وأنا أنظر اليها تارة وتارة أخرى إلى حدوة الحصان المعلقة على الجدار . . .

إنها أداة صالحة للقتل . . . وبالأخص لما تهوي على رءوس طرية ، رأس فتاة فى العشرين وفتى في الثالثة والعشرين . . !

وبينها وبين حدوة الحصان ، وقعت عينى على المرآة فرأيت الرأس الأصلع . والفود الذى وخطه الشيب ، والعين التى بلا أهداب ، فرأيت منظر أب ، أب شيخ فرغ من الحياة وفرغت منه الحياة ، أب من واجبه أن يخلى ميدان

الهوى للبنين . . .

وخرجت من باب الخدم برأس منكس وكل ما أخذته معي من أسلاب المعركة حدوة الحصان . .

أنها لم تستطع أن تجلب الخير لامرأة . . فلعل فى ذهابها ذهاب الأحزان والأشجان !.

شهادة لله ..!

كنا نتحدث عن الحالة المعنوية لرجال البوليس فى مصر بمناسبة العسكرى الذى رأى نارا تشب فى أحد المنازل فأراد أن يخاطب المطافىء ، فعجز تمام العجز عن استعمال التليفون ، وأضاع فى ارتباكه عدة دقائق ذهب فيها المنزل المحترق طعاما للنيران .

واتصلت النوادر عن رجال البوليس ، وبعضها استحال إلى فكاهات مؤلفة ، الغرض منها تسلية السامرين . . .

وذكرت لرفاق حكاية عسكرى آخر ، سألته مرة عن فندق الناسيونال ، وكان على مقربة من موقفه فى الطريق ، فحملق فىّ كالتيس ، ثم أدار بصره هنا وهناك ، ثم أخذ يردد بينه وبين نفسه بصوت الشارد المأخوذ « . . . لوكاندة السسال . . لوكاندة السسال ! . . » ثم كأنما فتح

الله عليه فجأة فأمسك بساعدى وقال لى ضاحكا ضحكة الانتصار . . « أيوه ياعم ، تمشى زى ما أنت ماشى كده ، شويتين ، وبعدين تحوّد على اليمين ، وبعدين تدورع الشمال تلاقى لوكاندة ال . . . ال . . . النسال ! ! »

وشكرته ولكنى لم أمض فى الطريق كما أشار ، وإنما عدت على أعقابى ، ثم درت على الشمال ، ولفت على اليمين .. تماما بعكس ما قال . . . وللصدفة الحسنة عثرت بفندق الناسيونال ! !

وأخيراً قال الأستاذ صبرى المحامى أن مصيبة الجهل ليست شيئا فى جانب المصائب الأخرى فى حياة أولئك الرجال . . . وهى الكذب ، والادعاء ، والاستغلال القبيح الاحمق لسلطان الوظيفة بلا ضابط ولا ضمير . حدث يوما وكنت وكيلا لنيابة السيدة زينب ، وليس فى شكلى ولا فى مظهرى ولله الحمد ما يفرض احترامي فرضا على الناس . . حدث أننى خرجت من عملى متأخرا ، وكنت متعبا جدا ، وكان بيدى محضر تحقيق فى تهمة هتك عرض محوّل إلى من

ملاحظ البوليس ، وأهم شهود الأثبات فيها هو عسكري النقطة ، إن لم يكن هو الشاهد الهام الوحيد . . . لأن سائر شهود الأثبات كانوا بين مردد لما سمع ، أومستنتج من أقوال الرواة ، أو مدافع عن عرضه بالحق أو بالزور ، وبعضهم يتناقض مع بعض فى رواية الموضوع .

وتركت ملف التحقيق بعد أن قرأت أوراقه مرتين وكان من عادتى فى دراسة قضاياي ألا أقطع فيها برأى حتى أتركها ، أو قولوا أنساها يوما أو بعض يوم أو عدة أيام ، ثم أعود إليها بعد ذلك فأجد كثيرا مما استغلق على فيها قد أسلس لى قياده وتطامن لى فيه وجه الصواب . .

وخرجت من مقر عملى مبعثر الشعر مشوش الثياب ، وكان طريقى يخترق جاردن سيتي من حدها الغربى على شاطىء النيل ، وفى مثل الساعة المتأخرة التى خرجت فيها من مثل شهر أغسطس ، تكون كل الدكك الخشبية المبعثرة على إفريز هـذا الطريق ، عامرة بأخـلاط الناس من مختلف الأوساط ، يتسامرون على ضوء النهار الغارب ، وعلى

نسيم الليل المقبل من ضفاف الجزيرة الغربية حاملا معه إلى القاهرة المختنقة فى لظاها تحية النيل .

وسرت فى طريق وذهنى كله محصور فى الفلم الحى الذى كان يعرض نفسه لعينى على طول الطريق ، أذناى مرهفتان لأصوات باعة القصب واللب والترمس وما تناثر حولها من بذيء الفكاهات ، وعيناى مفتوحتان لكل شيء ولكل وجه وكل حركة غزل تبدو بين عاشقين ، ولا أدري كيف تزدحم هذه الأشياء التافهة فى الصفوف الأمامية لحواسنا دائما حتى فى أحرج المواقف وأدق الظروف . .

ورأيت وأنا سائر عسكري البوليس محتدا على بائع من باعة القصب يزجره وينهره وينابذه بأقبح النعوت والألفاظ وتبين لى بعد أن وقفت بجوار الجمع المحتشد لحظات أن الحكاية كلها مساومة على شراء عود من القصب ، وقف فيها الشرطى إلى جانب المشترى بلا مبرر ، وبلا معرفة بينهما ، ولا قصد إلا التسلية بلذة الفصل والقضاء ، ولم يحترم البائع رأى المشترى ولا حكم هذا المستشار الفضولي الذى يريد أن

يملي عليه إرادته إملاء ، وأصر على أن يبيع عود القصب بأربعة مليمات ، بينما كان المشترى يقدر له ثلاثة فقط ، والعسكرى يثور لفداحة هذا الثمن المرفوض . .

وعز على العسكرى أن يخالف أمره بهذه الصفة ، فما كاد يفرغ من تحية عسكرية أدّاها ، بمنتهى النشاط لتلميذ من تلاميذ المدرسة الحربية ، كان يمر فى هذه الناحية للمرة الثالثة منذ وقفت بين المتخاصمين ، مسرورا على ما يظهر لعثوره فى النهاية على جندى يعرف الواجب ، رادا على تحيته للمرة الثالثة أيضا باشارة لا معنى لها من أنامله العندمية وعصاه الخيزران . . . ما كاد يفرغ العسكرى من تحية هذا الاله الصغير . حتى صفع بائع القصب عدة صفعات ترددت صدى فى أبنية العمائر الجديدة المجاورة ، ولعنات أو ضحكات على أفواه الحاضرين . . .

واحتج البائع على هذه الاهانة وعلى الضرب بلا مبرر احتج احتجاج الضعيف بالزفرات والدموع ، وردد أكثر من مرة الحكمة القائلة إن البائع والمشترى بينهما يفتح الله !

ولكن الاحتجاج لم يغن عنه شيئا ، والدموع ذهبت هباء ، والصفع باليد استحال إلى ركل بالحذاء العسكرى الضخم الثقيل ، وتوالت الشتائم أقذر ما تكون ، وامتزجت بالتهديد المستمر أن يعمل له ثلاث مخالفات ، مخالفة للسير على اليسار ، ومخالفة للنداء على القصب بصوت عال فى مثل هذا الحى النبيل ، ومخالفة للاعتداء على ممثل الحكومة والأمن والنظام . وهذا كله إذا لم يبع عود القصب بثلاثة مليمات ! !

ودهشت لأن البائع المسكين كان واقفا بعربته فى أقصى اليمين ، ومن دون باعة القصب والترمس والفول كان صوته أخفت الأصوات ، ولم يزد فى رد الضربات المنهمرة على جسمه عن مجرد الاحتجاج والبكاء ، ورأيت كل الناس يتدخلون ، من لم يتدخل منهم بالقول تدخل بالاشارة ، وقلت فى نفسى إنها حسنة أقدمها لهذا الرجل التعس ، حسنة أكلل بها متاعب اليوم ، إذا أنا وقفت فى صفه الأعزل الضعيف . . .

وبالفعل بدأت بمنتهى اللطف أنبه المسكرى لخطئه فى هذا التصرف الشاذ ، ولكن المسكرى بعد أن استوثق بنظرة واحدة من مجموع شكلى ومنظرى أننى لست شيئا يُرهب أو يحسب له حساب ، ترك بائع القصب وأمسك بردائى من قفاه وشد عليه بكل قوته حتى خيل لى أنى أكاد أختنق ، ثم صاح بى وهو يصفعنى بيده القوية ، ويركلنى بأحدى قدميه ، والزبد يتدفق من فمه مع الألفاظ . . .

— وإنت شأنك ايه يا ابن الكلب تنحشر فى اللى ما لكش فيه ؟ . . سير قدامي يالله ع القسم ، والله لأوريك يا ابن ستين فردة وطا قديم ، وأعلمك ازاى تهجم على الحكام !!

وحاولت أن أستعطفه فلم أستطع ، لأن ضغط الملابس على حنجرتى لم يدع بها غير حيز ضيق يتسع بالقوة لمرور الهواء . .

وكنت أظن أنها طريقة طيبة للخلاص من بائع القصب لأن موقفه منه لم يكن بالموقف الذى يستطيع الدفاع عنه أمام الرؤساء مع هذا الجمع الهائل من الشهود ، وعللت نفسى

أنه سيفرج عنى بعد أن تغيب عن الأنظار . . .

ولكن هذا كان وهما ، فان شهوة الوحش للحصول على فريسة ، كانت تطغى على نفسه فى هذه الساعة ، وقد أغراه ما رأى من ضعفى وهوانى ، فاطلق ليده ورجله ولسانه القذر العنان . . .

وظل يدفعنى أمامه دفعا ، حتى أشرفنا ، على قسم السيدة زينب فسألنى متهكما . . .

— حضرتك تعرف فى القانون ؟ .

وأردت أن أقول نعم ولكني لم أستطع فقلتها برأسى فى عدة هزات ، فعلق على جوابي وقال :

— داهيتك سودة . . . ما فاتتش عليك المادة ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ والتعدى على الحاكم أثناء تأدية الوظيفة يا ابن القرطوس . . . سير قدامي سير ! .

وكنا فى هذه اللحظة أمام باب القسم وكان المعاون بالصدفة واقفا بالباب ، فتوسلت له بنظرة استعطاف ، فسألنى مشدوها من غرابة ما يرى :

— ايه الحكاية يا سعادة البيه ؟ . .

وشعرت أن يد العسكرى يخف ضغطها على عنق ، فقد فعلت فيه هذه الكلمة ما يفعل السحر ، ولم أصدق أني أفلتُّ من براثنه إلا حينما رأيته واقفا بجانبي فى هيئة تعظيم عسكرى ، وإحدى يديه مرفوعة إلى جبينه والأخرى بجواره حيث يجب أن تكون . .

وتنفست بحرية ، وملأت صدرى من الهواء ، وأجبت المعاون بعد أن صافحته وأنا أمرن عنق على الحركة وحنجرتى على الكلام :

— إسأل حضرتك العسكرى بتاعك جاررنى من المنيل بالشكل دا ليه . .

والتفت المعاون إلى العسكرى الذى كان واقفا مكانه كالصنم ووجهه كقشرة الليمون ، ثم ناداه غاضبا :

— إيه يا عسكرى الحكاية :

ولم يجب العسكرى لأن لسانه الثرثار لم يعد يدرى ما يقول :

فزغده المعاون فى صدره بسن يده وصاح به :

— إيه يا حمار . : . ما تنطق . . . جايب سعادة البيه وكيل النيابة هنا ليه ؟ . .

وأخيرا وجد العسكرى لسانه فأجاب وصوته مرتعش ومملوء بالعبرات ، وعيناه يطل منهما قلب مذعور متوسل مستغيث . . .

— جايبه « شاهد » يا فندم ! !

وضحكت ، لأننى لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا غير أن أضحك ، وقصصت على المعاون القصة ، ورجوته أن يكتفى من عقابه بالزجر فقد كان منظره مؤلما وهو يسجد على قدمى فيقبلها ويقول لى متوسلا :

— فى عرضك ياسعادة البيه أنا ورايا عيال ! !

وذهبت إلى منزلى وأنا أفكر فى تهمة هتك العرض التى سأحقق فيها صباح الغد والتى يؤلف عسكرى آخر من عساكر البوليس أهم عنصر فيها من عناصر الأثبات . . .

ونمت وأنا أحلم فى ضحايا رجال البوليس .

وفى الصباح عند ما بدأت عملى كنت قد نسيت كل شىء . . . .

ولكن عند ما وقف أمامي العسكرى الشاهد فى التهمة المنظورة ، عادت إلى ذهنى قصة الأمس بتفاصيلها . . .

لأن العسكرى وهو شاهد الأثبات الوحيد فى التهمة كان هو بعينه بطل معركة الأمس ، أى إنه الرجل الذى خلق لبائع القصب ثلاث مخالفات من لا شىء ، وكان على وشك أن يذهب بى إلى السجن بناء على ثلاث مواد لم أغاضبها فى يوم من الأيام !

وسكت الاستاذ صبرى عند ما وصل إلى هذا الحد من قصته فسألناه عن مصير التهمة التي كان يحقق فيها فقال :

— لا شىء . . حفظت . وأحيل الشاهد إلى مجلس عسكرى لا أدرى ماتم فيه . .

الخامس في الليمون

— العمل الحر ؟ ما أيسر أن يتحدث الانسان عن هذا العمل الحر ، جالسا إلى مثل هذا المكتب الضخم في هذه الغرفة الجميلة متمتعاً مثلك بلقب سكرتير الوزير !

— إني أنصحك لوجه الله .

— إنني أشكرك ولا أقبل النصيحة .

— أرجو ألا تندم .

— ليس ما يوجب الندم في حياة محام صغير .

— قد يكبر المحامي . . .

— وقد يظل صغيراً كألوف سواه ! .

— مع ذلك يبقى له استقلاله . .

— في بيته نعم . أما في المحكمة فبعض السادة كالعبيد !

— وشرفه ؟ . .

— أى شرف أن أقضى حياتى فى بسط الكف أستجدى كلمة العطف من شفاه القضاة ؟ ومن هو القاضى الذى أستجديه ؟ شخص مثلى وقف يوما ما موقفى هذا حتى فتح له باب الوزير . إننى مثله من دم ولحم ، وأنا الخامس فى الليسانس ، وقد يكون هو الأخير . . . لا ، لا ياسيدى ، سأقف هنا حتى يفتح لى الباب !

— قد يطول عليك الانتظار .

— فى سبيل أن أصبح مساعداً فى النيابة فليطل ما يطول . .

— وأى مجد تراه فى أن تصبح كذلك ؟

— كل شىء يبدأ صغيراً . .

— وقد يظل كذلك ! .

— أجل ولكن قد يصبح المساعد وكيلا وقد يصبح الوكيل قاضيا وخطوة واحدة بين القاضى والمستشار . ثم المجد ، العظمة ، أن أصبح قوة لها أثرها فى الوجود ! ثم من يدرى قد تسقط وزارة كما تسقط الوزارات . .

— فأذا بك وزير ! !

— ولم لا ؟ لا داعى للسخرية . . . أناس كثيرون قد باتوا وأصبحوا وزراء ! .

— خسارة ! . . . ليس هنا مرآة لترى صورة من نفسك الآن ..

— قد يكون الجمال كفاءة ، ولكن فى غير حياة القضاة ! .

— إنما أردت هذه الحمرة القائمة على أنفك المرتعش ! .

— هى سورة الأمل ..

— عيناك تبرقان ! .

— بريق العزم والايمان ! .

— حاذر . . . فى لحظة حماسة كهذه ، انكسرت جرة السمن على رأس صاحبها يوما من الأيام . . . محمد أفندى . . . .

— أفندم !

— لا تسرف فى الأمل إن الأمل خداع ، كلمة أقولها لك للمرة العاشرة ، واليوم بأكثر صراحة ، معالى الوزير

لا عمل له معك ، وهو يرفض بتاتا أن تراه أو يراك !

وتندى جبين محمد أفندي البدويهى — الخامس فى الليسانس ـ بقطرات من العرق ، جففها بكمه وانتظر قليلا حتى استعاد أثارة من لونه الضائع ، ثم دس يده فى جيبه ونظر إلى سكرتير الوزير نظرة فيها نقمة لم يخفها ، وفيها حقد لم يكتمه ، وفيها كذلك معنى من معانى الانتصار . . .

— مع ذلك فلن أيأس .

— إنك عجيب !

— نحن فى دنيا يدخل الشيطان فيها الجنة بقلنسوة راهب

— لكن أين وكيف يجدها الشيطان ؟

— قد يجدها فى كلمة . . قد يجدها فى رسالة ، أترى معالى الوزير يرفض أن يتسلم منى هـذه الرسالة من سمو الأمير ؟

— عظيم جدا هذا بغير وجه المسألة ! .

ونظر السكرتير إلى محمد أفندى البدويهى نظرة ساخرة ، أخطأ ترجمتها الأستاذ الشاب ، ثم قام من مجلسه ، فركع

لمحدثه نصف ركعة ، وسأله بمنتهى اللطف والخشوع أن ينتظره حتى يعود ، ثم علق الرسالة على أربعة من أنامل يديه ، كل ركن منها تحمله أنملة ، زيادة فى الاجلال والاحترام ، وتركه موقنا أن سهمه قد أصاب المقتل ، وأن الأقدار قد ذلت له وتواضعت حتى لم يعد بينه وبين كرسى النائب المساعد إلا لحظات لا تلبث أن تطويها وتطوى قلقها وحيرتها وأحلامها عودة السكرتير ! .

كان البدويهى أفندى خامس الليسانس يتردد منذ عشرة أيام كل يوم مرة على هذا السكرتير .

وكخامس فى الليسانس ، كان يعتقد مخلصا أن هذه الشهادة التى وقعها له وزير الحقانية — بذاته — هى كلمة المرور السحرية فى دنيا العز والمنى والآمال !

وكان رقم « الخمسة » عنده قد أصبح الرقم الأول فى علم الحساب ! .

وقد أحسن البدويهي أفندي ظنه أولا بسكرتير الوزير ، وراض نفسه بشىء من الجهد على أن يعتقد أن وزير

الحقانية قد يكون له فى بعض الأحيان — كما كان يقول له السكرتير — عمل أخطر قليلا من النظر فى مستقبل فرد من الناس فتقبل الكلمة « فرداً من الناس » ببرود ، واكتفى يومئذ بأن يلعن الحظ الذى وقف به على باب الوزير المغلق ، فى حين من هذه الأحيان !

ثم تضاءل هذا الاعتقاد فى نفسه أخيراً تحت تأثير الخيبة المتوالية ، والفشل الدائم فى محاولة الاتصال بالوزير ، فعاد يظن الظنون بالسكرتير ، ثم استحالت هـذه الظنون إلى اتهام صريح !

إن السكرتير يصده صدا عن مقابلة الوزير . .

إن فى نفس يعقوب حاجة . .

لعل له أخا من حملة الليسانس . .

أو لعله صديق . .

أو هي رشوة من شخص غنى فى مؤخرة الناجحين . .

ومهما يكن فهي مناورة يراد بها إقصاؤه حتى يفوز واحد من هؤلاء بعطف الوزير !!

وما إن وصل من حديث نفسه إلى هذه الغاية حتى استرجع كل ما يذكر من أحاديث السكرتير وحركاته، وإشاراته، وتصرفاته، واضعا لكل منها صورة تتفق وما تخيل وخال!

واندفعت لعناته المكتومة تلاحق هذا السكرتير! ثم أعلن عليه الحرب خفية: فاتصل بزيد من الناس، واتصل زيد بعمرو، واتصل عمرو بخالد، واستطاع خالد أن يحظى له برسالة توصية من أحد أصحاب السمو الأمراء...

وكان السكرتير بدوره يستثقل البدوي أفندى بينه وبين الله، ويرى فى كبر أنفه، وفى ضيق عينيه، وفى ضخامة شفتيه، وفى انسطاح جبينه، وفي بروز فكه الأسفل بروزا أضاف إلى هندسة وجهه عنصراً من عناصر القبح والتشويه، ثم في زياراته المملة، وفي إلحاحه السمج، وفى تلك الحركات البهلوانية، التى كان الشاب يتكلفها، بين قيام وقعود، وبين تحيات وبسمات، كلما فتح باب الغرفة لزائر قديم، أو انفرج عن زائر جديد... كان السكرتير يري

فى كل هذا ظلا من ظلال الثقل والضعة والسماجة يضرب العين أول ما تراه .

لكن قيود الوظيفة كانت تضطره أن يصابر الناس كيفما كانت حظوظهم من تقاسيم الوجوه ، وكانت فلسفة الحياة تملى عليه أن يلتمس لألحاح البدويهى أفندى معذرة من رعونة صاحب الحاجة ، وكانت عواطفه النبيلة توارى شعوره المجروح ، بالعطف على شاب لايد له فى خلق نفسه يقف حالما على أعتاب المستقبل المبهم ، غارقا فى عالم منضور من البسمات والأحلام .

وكذلك أشفق أن يرده عن باب الوزير بقسوة ، فعوّد أذنه أن تسمع من صوته ما تكره ، وعوّد عينه أن ترى فيه قطعة مضحكة من أثاث المكتب ، وترفّق به ما استطاع .

والويل للناس من الناس !

وفى انتظار عودة السكرتير ، جلس طربوش البدويهى أفندى فى مقعد ، وجلس حذاء البدويهى أفندى فى مقعد ،

وجلس البدويهي أفندى ذاته ـ نصف راقد ـ فى مقعد ، واحتلت يداه ـ على امتـداد الذراعين ـ مقعدين آخرين ، وشخص ما من زوار السكرتير ، أو لعله من زوار الوزير ، خجول كما كان يبدو عليه ، ظل واقفا الى جوار أربعة زوار آخرين ، جلسوا الآن البدويهي أفندى سمح لهم بنصيب من مقاعد غرفة السكرتير ! .

أليس البدويهى أفنـدى قد لبس قلنسوة راهب ؟
أليس قد كسب المعركة ؟
أليس الآن ممثلا لأمير ؟

وعاد السكرتير فى النهاية ، فوقف له الكل إلا خامس الليسانس ، ومن حق الليسانس التى هو خامس الناجحين فيها ، أن ينتقم لها ، وأن يبلغ فى انتقامه من خصمه ما يريد ، ووقف السكرتير أمام البدويهى أفندى مذهولا ، واشتمله واشتمل المقاعد التي يشغلها هو وملحقاته بنظرة مكهربة ، ثم شبك يديه على صدره ، وركع له للمرة الثانيـة نصف ركعة ثم ناداه :

« يا صاحب المعالى يا وزير المستقبل ! إن صاحب المعالى الوزير الحالى يرفض أن تراه أو يراك ! ويقول معاليه لمعاليك إن شئت أن تكون مساعداً في النيابة فانجح فى امتحان المساعدين القادم ، ولتكن فيه الأول أو الخامس أو الأخير ! . »

وقف البدوى أفندى لا تحمله ساقاه ، بعد أن جمع أجزاءه المبعثرة على الكراسى ، أصفر اللون مبهوتا من رجة الزلزال ، واستمر السكرتير :

« ويقول معاليه لمعاليك إنه توجد وظيفة خالية فى مصلحة المجارى يعدك بالتزكية فيها لوزير الأشغال إن لم تنجح فى الامتحان . . وتفضل اخرج يا صاحب المعالى ولا ترنى وجهك بعد الآن ! . »

— وما هذه الوظيفة يا سعادة البيه ؟

— وظيفة كتابية لك فيها غرفة تستطيع أن تعيش فيها سيدا كما تشاء ، وأن تذم فيها العمل الحر أو تمدحه لمن تشاء ، ومرتبها ستة جنيهات . .

— لكن يا بيه . .

ـــ لـكـنك خامس الليسانس .. أعرف ذلك وأعرف أنك عظيم كنابليون ، لـكن مع ذلك هذا وحده باب الجنة المفتوح أمام الشيطان ! !

ـــ يا بيه . .

ـــ لا بيه ولا تيه . عجل بتقـديم طلبك إذا شئت ، وأؤكد أنك ستشاء ، إن رابع الليسانس ـ ومعه هو الآخر قلنسوة راهب ـ كان هنا بالأمس وسبقك إلى هناك !..

الصليب الأحمر

كان الشيطان يومئذ فى عيد ، والرياح كلها فى صفه ، ووقفت ببابى إشاعة لها وجه قرد ، وعلى معصميها جلاجل ، وفوق كعوبها خلخال . . . ولما طردتها من النافذة جاءتنى من الباب . . .

كنت أطأ بقدمي كل الأشاعات التي تحاول أن تلوث لى حياة « زوزو » ، وأحيانا كنت أتأثر وأغار ، ولكن عند ما أرى جبينها العالى على منال التهم ، وأرى عينها الأشد طهراً وصفاء من عسل الربيع ، أذكر عظة تعلمتها من حياة شاب من أصدقائى ، فأهدأ وتنطفىء فى جوانحي النار .

هو شاب تحبه « أم كلثوم » وتعبده ، وتحلم به . . . أعنى أنه يقول ذلك ، وآية هذا الحب عنده أنها نظرت إليه مرة ، وأطالت ، وهى تغنى فى إحدى الليالى بمسرح الكورسال ! . .

هو داء معروف يصيب معظم الشباب .

زوزو طالبة فى الجامعة المصرية ، فى السنة النهائية من كلية الحقوق ، صوتها لحن ، ووجهها صورة ، وقوامها تمثال ، واللحن والصورة والتمثال كلها من عمل مدرسة عليا للفنون . . .

غربلوا هذه الشهادة بأى غربال تشاءون — فأنا شاب ككل الشبان نصف ما أقوله عن المرأة كذب ونصفه مبالغات — وثقوا بعد ذلك أنه سيبقى لزوزو جمال ملك وفتنة شيطان — كذلك كنت أعتقد — وعلى كل حال فأكثر من مائة شاب كانوا يتحدثون عنها ببريق فى العين ، وبعضهم كان يتنهد ، وأنا بالذات كنت ، فى ظرف خمس سنوات زاملتها فيها بالمنزل زمالة الجوار ، وسنتين زاملتها فيهما بالجامعة زمالة الصداقة ، كنت أكنّ لها أكثر من

عاطفة أخ ، وأسهر من أجلها ، وأحترق من حيث لا تعلم ، وأؤلف خطابات وقصائد أمزقها جبناً وخجلا فى الصباح !.

أقول إننى كنت أطأ بقدمى كل الاشاعات التى تحاول أن تلوث لى حياة زوزو ، التى كانت فى نظرى محصنة بسبعة حصون . ولكن فى هذه المرة كانت الأشاعة ضخمة وعارية وعيونها حمراء ، ومجرد ابتسامتها فضيحة . ولما حاولت أن أطأها كأخوتها بقدمي ، سحقتنى هى تحت قدميها سحق الحجر الهابط من أعلى الجبل لأصغر سلحفاة . . .

كنت أحب زوزو وأخشاها ، وأعرف تماما أنه ليست هناك قوة في الوجود تفرض عليها تأدية حساب لشخص مثلى خارج عن دائرة حياتها الشخصية ، لذلك جلست أمامها كالتلميذ المذنب ، ووضعت فى قلبى كيساً من الثلج على رأس الكبش الهائج المحموم ، وتركت لها هى أن تفتتح الحديث .

قالت يخيل إلى أنك مريض ! ؟

قلت : كلا

قالت : ألعلك مهموم ؟ . .

قلت : ربما . . .

قالت : فما بك ؟

قلت : حكاية سمعتها عنك . . .

قالت ضاحكة : ـ ولضحكها فى نفسى مثل وخز السنان المسموم ـ . . . يا لك من مسكين ! . أحكاية عنى تجعلك هكذا محطما كالصقر الجريح ، فماذا إذن لو سمعت كل ما يروى عنى من حكايات ! ؟

قلت : إنها تمس شرفك بخنجر !

قالت باسمة : اطمئن . . . كلهن كذلك فأيهن تعنى ؟

قلت : وقد أثار برودها فى نفسى مزيجا من الألم والاحتقار . هى حكاية صليب . .

قالت : أى صليب ؟ . . لا أعرف أحدا بهذا الاسم !

قلت : تتجاهلين الآن ، إنما أقصد شارة صليب أحمر . .

قالت : زدنى بيانا فلم أشتغل أبدا ممرضة .

قلت وأنا أكاد أجن من هـذا الدور التمثيلى الملعوب بأتقان . . هو صليب أحمر من صباغ المانيكير وضعته على إبهام طالب فى كلية الحقوق .

قالت أهو الذى وشى بى لديك ؟

قلت لقد ذهب يشى بك إلى صديق من أصدقائه فى كلية الآداب ، فهل تعلمين ما ذا حدث ؟

قالت لن أكون فى حاجة إلى ذكاء كبير لأقول إنه صب بترولا على الموقد المتقد !

قلت أجل ! لقد أراه إبهامه هو الآخر ! . .

قالت وفى صوتها حشرجة مكتومة . . فوجد على إبهامه علامة الصليب ؟

قلت كذلك يقولون . .

قالت هى إذن فرقة عشاق ؟ .

قلت بل فرقة ضحايا ، بعضهم فى كلية الحقوق وبعضهم فى كلية العلوم وبعضهم فى كلية الآداب . . أكلتهم أحياء ورميتهم أشلاء !

ونظرت إلى نظرة كنظرة اللبؤة المحرجة ثم عادت فسحبتها بابتسامة وقالت وهى تفتح أدراج مكتبها فتعبث بها واحدا واحداً ، وتخرج منها عدة صناديق وبضع مجلات . .

قالت وعلى إبهاماتهم كلهم إذن صلبان حمراء ؟

قلت . . أجل .

قالت وأنا صاحبة الصلبان ؟

قلت وأنا أفكر بحيرة فى المفاجأة التى تعدها لي من هذه الصناديق . . ومن سواك ؟

قالت خسارة أن حبيبي هذا لم يذهب إلي كلية الطب أيضا يفتش فيها عن منافسين ، أعنى عن جنود آخرين فى فرقة الصلبان الحمراء

قلت من يدرى لعله يوم انتحر تحت عجل الترام كان ذاهبا إلى هناك . .

قالت أوه . . إنك تعنى مصطفى إذن ؟

قلت والبقية الباقية فى نفسى من الأمل فى براءتها تذوب . . أجل . . أجل . . هو مصطفى ، وقد بدأنا نتفاهم

على ما يظهر . .

قالت وقد أرخت أجفانها وحدقت في الأرض ، وامتلأ صوتها بقطرات الدموع . . مسكين كان فتي طيب القلب ، كان ثانى اثنين ، أحبنى كلاهما بأخلاص .

قلت متهكما . : وأولهما بالطبع فى كلية الآداب ؟

قالت صبراً ، فستعلم الآن من كان أولهما ومن كان الخامس والثلاثين !

ثم فتحت أحد الصناديق ، وأخرجت منه عدة حزم من الرسائل مختلفة الأحجام والألوان ، على كل حزمة منها شريط حريرى أزرق ، فأخذت الحزمة الأولى وقالت هذا الصندوق رسائل من أصدقائى فى كلية العلوم ، وهذه الرسائل بالذات من مساعد أستاذ هناك ، سنه فوق الأربعين أى فى عمر أبى ، وله خمسة أولاد . !

وفتحت الصندوق الثانى وقالت وهى تبعثر منه حزم الرسائل ، وهذه خطابات من أساتذة وطلبة كلية الآداب ، ستقرأ فيها صفحات جميلة من النثر والشعر ، المؤلف والمقتبس

بسخاء من دواوين بيرون وتنيسن وليالى دى موسيه ، وبكل اللغات !

وأخذت تفك الأشرطة الحريرية عن حزم الرسائل من مختلف الصناديق بلا ترتيب ، وتبعثر الرسائل على طول يدها ، بحركة عصبية تسلطت عليها وخيل لى منها ومن بريق عينيها ، ومن تغير ضحكاتها إلى ما يشبه ضحكات المجنون ، أنها تحت تأثير شعور عميق جارف مضغوط .

ثم قالت وهنا رسائل كلية الحقوق ، حيث الخطابات المكتوبة بالخط المزيف ، أو على الآلة الكاتبة ، وبأمضاءات يمكن التحلل منها بسهولة أمام المحاكم لما أطالبهم بالزواج ترضية للشرف المجروح . . . حزمة واحدة منها . . هذه . . هى رسائل مصطفى . . خذ . . خذ الكل . . اقرأها مجموعة مجموعة ، ورسالة رسالة ، اقرأها وحدك بالليل . وخذ أيضا هذا العدد من مجلة الالستراسيون ، حيث ترى فى الملحق الروائي له قصة تشبه تماما القصة التى رويتها لى ، وعنوانها هى أيضا الصلبان الحمراء . . . هي

مكتوبة عن مومس فى باريس . . وبنذالة رواتك أمكن جعلها رتوشا لمصرع شاب قلبه كالأناس أحب ويئس من حبه فمات . . . اقرأها كلها وسائل نفسك ولا تسلنى إن كانت هـذه الرسائل تكتب إلى فتاة ترد على رسائل غرام أو تضعف أمام إغراء المغرمين . . اقرأها جميعا واذهب فتحدّث بها أصحابها مجتمعين أن يروك إبهاما واحداً عليه صليب من صلبانك الحمراء . . اقرأها كلها وحدك بالليل تحت المصباح الذى كنت أنت الآخر تؤلف تحت ضوئه الأحمر رسائل هواك المكتوم . . لا تحاول تكذيبى . . . اسكت أنت ودعنى أتكلم الآن . . . إنه دفاع عن عمر لوثوه بالأكاذيب ، إنه دفاع عن جيل من الفتيات غارق فى المظالم . .

وكانت ضحكاتها الأولى قد ماتت تماما الآن وامتلأت عيناها بدموع كبيرة تساقطت على خديها كاللآلى — واستمرت تقول وهى تفتح الصندوق الأخير ، لاهثة بكلماتها لهاث الصيد الطريد . . . هذه رسائلك أنت ، كان

خادمك يجمع لى فى صباح كل يوم فتاتها ، فأؤلف بعض قطعها إلى بعض لأقدمها لك هدية فى ظروف أجمل من هذه الظروف . . أتراه ذنبي أنا أن أكون إحدى فتيات يؤلفن فى الجامعة جيل الضحايا ، لأنهن بالصدفة أول فتيات دخلنها طالبات .. فعشن بها كالزرع الغريب يجتذب عين المالك كما يجتذب عين الزارع ، كما يجتذب عين الحاصدين . . أتراه ذنبى أنا أن يطمع فى جسمى عدة مجانين لم يروا فى حياتهم شبح امرأة فتهافتوا عليّ كالجراد يقضون الليل فى كتابة الرسائل والتنهدات ، والنهار فى تمزيق عرضى بحقد اليائسين وبأقذر الاتهامات . . ؟

فى الروايات تستغرق أمثال هذه الخطب الثائرة وقتا طويلا ، لكن فى الحياة عدة دقائق فقط ، تكفى — كما حدث فى هذه المرة — لثورة البركان وقذف الحمم ، ثم سدّه فى النهاية بقبلة مشتركة تجمع فى غيابة حلم جميل بين أربع شفاه . . .

وانجلى الحلم فى النهاية فأخذتنى من يدى ثم جلست

بي أمام المرآة ، وفتحت علبة فيها كثير من أدوات الزينة بين مساحيق وصبغات وآلات ، ثم قالت ووجهها كله مشرق بابتسامة . . . أعطني يدك !

قلت وقد خيل لى أنى أفهم ، ماذا تريدين ؟ قالت أخر على إبهامك تذكارا ، تتحدى به من تشاء !

قلت لعله الصليب الأحمر . . .

قالت نعم أميز به أول وآخر حبيب !

قلت إذن أنضم إلى الفرقة . . ؟ !

قالت وهي تضع حول الصليب سيفين . . لا كجندى ولكن أميراً للألاي . ! !

نورماشيرر

أنني مسئول أمام الله وأمام ضميرى عن بنت حطمت آمالها بلا قصد ، كأنها نملة صادفت مناخ بعير . .

كانت سينما المترو بول تعرض فى إحدى الليالى الماضية الممثلة الحسناء « نورماشيرر » فى رواية «عندما تحب المرأة» وقد كان بجواري شاب ، لم يكن لى يد فى اختياره ، ولكنها كانت صدفة أو هكذا كنت أتصور . .

ولو أنى رأيت هذا الشاب قائما بجوارى يصلى لله فى مسجد لما كان هناك ما يدعو إلى العجب ، لكن الأمر يختلف فى السينما ، لأن عبد التواب أفندى رجل ساذج ، نصف أبله ، جبينه ضيق جدا ومنحدر بشكل ظاهر إلى الأمام ، وله عينان معتمتان يقفلهما ويضحك ضحكة عريضة بيضاء حينما يخجل من شيء ، وما أكثر ما يخجل له من

أشياء . وهو متخرج من الأزهر ومن دار العلوم وقد استبدل منذ عام واحد الطربوش بالعمامة ، والبنطلون بالقفطان ، وهو قليل التردد على دور السينما والتمثيل ، أولا لأن وقته كمدرس للغة العربية فى المدارس الابتدائية لا يسمح له باللهو والعبث ، وثانيا أنه لا يعرف غير لغة أمه وأبيه ، وكان يرى من الاجحاف المادى أن يتساوى فى الدفع بشخص يفهم لغة الممثلين ! .

إن الزمن يمضي بسرعة ، وللجيل القادم ستكون « نورماشيرر » ، التى كانت تمثل فى المترو بول تلك الليلة ، عبارة عن لا شيء . . عن واحد من المجاهيل العديدة التى كان لها يوما ما أمل وعمل فى العالم ، ثم أصبحت فيه قصصا مبهمة ، ترويها ـ بلغة لا يفهمها أحد ـ الرمال والأحجار . وهذا مجد الفنان المسرحى ، مجد سريع ، وانحدار أسرع . صبح فى أقصى القمة ، وليل فى أدنى القرار . . وإلى هذا الجيل ، إن قدر لأحد من ابنائه أن يقرأ هذه الكلمات ، أقول إن « نورماشيرر » كانت فتاة خلابة الجمال ، باستدارة

وجهها تحت تاج شعرها الحريرى المرسل ، بعينها الداعية إلى الحب ، بأنفها المخروط ، بثغرها المحرض على اغتصاب القبلات ، بكل تقاطيع وجهها وجسمها المعبرة بمنتهى البلاغة عن السر الفاتن الذى أودعته فيها الحياة . . .

هكذا كانت تبدو لى نورماشيرر فى هذه الليلة على الشاشة ، ولكثيرين غيرى ضاقت بهم المقاعد ، لأنها مزيج من صنعة الله القادر ، ومن فن المخرج الجبار .

ولقد كان عبد التواب أفندى واحداً من مرضاى المستديمين . . .

كان يوجد دائما فى بطنه شىء يؤلمه ، فان أراحه بطنه أتعبه قلبه ، فأن أراحه قلبه أتعبه شىء ما والسلام . . . إنه كان يدفع لي أجرى قصائد مديح ، والويل للطبيب من مرضاه الذين يطمعون فيه أحيانا حتى فى ثمن الدواء . . .

وقد خطب عبد التواب أفندى فتاة طيبة ، وعلى مستوى متوسط جدا من الثروة والجمال ، وكانت من أسرة مستورة الحال ، لم تطمع من عبد التواب أفندي فى أكثر

من الصداق الشرعى ، وقد قدره الوسطاء بعشرين جنيها ، وتم العقد بالفعل ولم يبق على تأليف البيت الجديد إلا تحديد يوم الزفاف بعد بضعة أسابيع . .

ولم ير عبد التواب أفندى عروسه حتى بعد الزواج ، لأن أسرتها من بيت ريفى من مخلفات القرن التاسع عشر ، تسمح للرجل باختيار حذائه وتجربته ، وتحرم عليه مجرد النظر إلى شريكة حياته قبل يوم الزفاف ! . .

وبعد أربع ساعات طويلة مملة ، كلها حديث عن المرضى والأمراض فى عيادتى المسائية ، أعتقد أنه كان لى حق فى تلك الليلة أن أرفض بتاتا الدخول مع عبد التواب أفندى فى تفاصيل علمية عن دلالة وجود الانديكان بكثرة فى بوله وعن السر ببكاء معدته باستمرار لكل ما يصيب جيرانها فى بطنه من الأوجاع ، وعن المائة شىء وشىء التي كان يسألنى عن أسرارها دائما بألحاح عجيب . . .

وقد زجرته فى الواقع بعنف لما حاول العوم فى هذه المياه الخطرة ، وفضلت السكوت التام إلى أن يبدأ عرض

الرواية بعد انتهاء الاستراحة ، إن لم يكن هناك أمل فى تغيير الموضوع .

وخجل عبد التواب افندى وأقفل عينيه ، وبالغ فى ضحكته البيضاء ، ووضع وجهه ببلاهة فى الأرض كالعادة ، ثم سألنى إن كان يمكن أن يرجونى فى رجاء أخير . . .

وخفت أن يكون هذا الرجاء سؤالا جديدا عن آلام المفاصل ، فقام بنفسي أن أبحث عن مقعد آخر ، ولكن النجوم اللامعة كانت كلها معه ، لأن المقاعد كانت كلها ملآى بالمتفرجين . فاعتمدت على الله وتركت لعبد التواب أفندى أذنى اليمنى يفعل فيها ما يشاء . . .

قال إنك تعلم أننى الآن متزوج ؟

قلت أجل .

قال وتعلم أننى لم أر زوجتى حتى الآن . .

قلت نعم .

قال فأنى أعترف لك أنى تبعتك إلى هنا واخترت مقعدى بجوارك لغرض . . .

قلت لعله خير . .

قال أريد أن أعلم منك من تشبه عروسى من النساء اللاتى تراهن فى هذه الرواية على الشاشة البيضاء ؟ .

وضحكت ملء نفسي من هذا الرجاء ، وتألمت فى قرارة روحى من تفاهة حياة تكون هذه بدايتها بين شريكين !

وأطفئت الأنوار فى هذه اللحظة ، وبدأت السينما بعرض الرواية ، ونسيت عبد التواب افندى ، وعروسه ، وأصهاره المحافظين ، ولكن عبد التواب أفندى لم يعترف بهذه الهزيمة السهلة ! فاختار امرأة عجوزا لها دور فى الفلم ثم سألنى إن كانت عروسه تشبه هذه العجوز . . !

وكنت الآن بين ثلاثة أشياء ، كل منها أمرّ من أخيه ، أن أخنق عبد التواب أفندي وأستريح وأريح الجمهور الذى لم يبذل مابذل من مال ليسمع محاورات تافهة بينى وبين هذا المعتوه ، وإما أن أجيب بالنفى فأعرّض نفسى لذات السؤال كلما ظهر على اللوحة وجه جديد ، وثالثة الأثافى أن أجيب بالإيجاب وأختصر الطريق ، فتبلغ هذه الشهادة الآنسة

إقبال عروس عبد التواب أفندى ، فأفقد عطفها ، وعطف أسرة مكونة من عشرة أشخاص ، بينهم على الأقل ثلاثة مرضى باستمرار . . . مرضى من الذين يدفعون . . .

وظهرت نورماشيرر على الشاشة فى موقف من مواقف الرواية البديعة ، فخطر لى خاطر غريب . . . ما الذى يحدث فى العالم لو تركت عبد التواب افندى يحلم بضعة أسابيع بهذا الوجه الجميل ، على أنه صاحبه ، وملكه ، وخاتم بنصره الشمال ؟ ؟

ورأيت فى هذا الخاطر حلا موفقا شريفا للاشكال ، حلا مرضيا للطرفين ، وليست له نتائج سيئة كالحلول الأخرى ، فانتهزت فرصة تمطى نورما شيرر على العشب فى برنس حمام ، ووجهها تحت وجه حبيبها مشرق بعاطفة حلوة تأسر خمسمائة عين تتطلع لها من عيون الشبان ، وتغار منها خمسمائة عين أخرى من عيون الفتيات . . . عاطفة تأنق فى تصويرها المخرج والمصور ونورما شيرر نفسها ، حتى أصبحت تلمس بالأنامل ، وتعطر الهواء ، فاستجمعت

شجاعة نفسى ودست بقدمى على قدم عبد التواب أفندى .
وقلت له هاك صورة تقريبية لاقبال .

وكان عبد التواب أفندى يقزقز لباً فى هـذه اللحظة على الرغم من الاحتجاجات المتكررة من جيرانه ، فانقطع صوت القزقزة ، وأصبح كله عيونا تنظر وتلتهم الأشباح الضاحكة على الشاشة ، وبات يرقب ظهور نورما شيرر بلهف وشغف ، ولم يعد يلتفت إلى ولا يكلمنى ، وخيل لى أنه عثر على كنز ، ولو كان حقا ما تخيلته لكان له العذر كله فى هذا الخيال . . .

وعند ما انتهت الرواية صافحنى عبد التواب افندى بحرارة ، وهز يدى حتى كاد يخلعها ، وقال لى والدمع فى عينيه :

— دكتور .. إنك أسديت لى معروفا عظيما . . .
إننى سوف أظل مدينا لك بهذا المعروف .

وكان وجه عبد التواب افندى تشيع فيـه ضحكة غير عادية ، انفتح فيها فمه أكثر مما يجب ، وكأنه ينفتح بمجهود . ولكنى لم آبه لها كثيرا ، ظنا منى أنها رد سريع على المجهود

الذهنى الذى كان عبد التواب افندى غارقا فيه . وقبل أن نفترق على كلمة الشكر عاد يسألنى عما إذا كان لدى دواء للأرق ، فنصحته أن يعد من واحد إلى مائة وينام !...

إن الأذواق تختلف بالطبع فى تقدير الجمال . لكن توجد وجوه تضعها جاذبيتها فى مستوى فوق طاقة الموازين ، ومن هذه الوجوه على ما كنت أعتمد وجه نورما شيرر ولذلك كان ضميرى مستريحا جدا ، وكنت أعتقد حقيقة أنه معروف عظيم ذلك الذى أسديته لعبدالتواب افندى فى هذه الليلة حينما أعطيته خيوط الحلم وتركته يؤلف منها بروجراما لعرسه الذهبي ، بروجراما ربما يكون فى حياته المقبلة حظه الوحيد من الهناء . . إنه زواج كعلبة البخت قد تصيب فيها قطعة من الحلوى ، وقد يصادفك فيها جعران !. والتمتع بشهر عسل خيالى مع زوج كنورما شيرر بعشرين جنيها فقط هو على كل حال ربح للمشترى وإفلاس محقق لسوق الجمال . .

ولم أعد أرى عبد التواب أفندى لعدة أيام ، ثم زارنى

بعد ذلك ومعه هدية مانجو من عشرين حبة من نوع لذيذ وقصيدة مدح من البحر الطويل عنوانها « طبيب الأرواح والأبدان »

وشكرت عبد التواب أفندى فأجابنى بأنى أستحق فى الواقع أكثر من ذلك فقلت علام يا أخى ؟ قال إنك أنقذتنى . . . قلت أنا ؟ . . ولكن مم أنقذتك ؟ قال من بؤس طويل ، لقد أرسلت لها بالأمس ورقة الطلاق . . .

طلاق ! . . إننى لم أستطع أن أحدّد ماذا كان يريد ، فسألته لمن أرسلت ورقة الطلاق ؟

فضحك عبد التواب أفندى ضحكته البلهاء ، وأقفل عينيه ، وفهمت أنه يريد إقبال وتمنيت فى هذه اللحظة لو استطعت فصفعته صفعة تعلمه خجل الرجال ، ولكننى بالأسف طبيب ، والطبيب يدخل فى قائمة الأشخاص الذى ينبغى لهم أن ينادوا الكناس ياحضرة الفاضل ، والذين يجب عليهم مداراة خلق الله أجمعين ، القائمة التى على رأسها يوجد الحلاق ! . .

وأعدت عليه السؤال : لمن أرسلت ورقة الطلاق ؟ . .

وكلى أمل كأمل الغريق فى جواب غير الذى قدرته وفكرت فيه .

فقال لى ووجهه فى الأرض : لأقبال ، «للبوصة» التى أريتنى صورتها بالأمس ، المريضة بالسل ، التى يشبه وجهها وجه البوم ! . .

واتضح لى فى النهاية وأنا أفيق من دوارى أن عبد التواب أفندى لم يعجبه أن تكون عروسه كنورماشيرر وأن نورما شيرر هذه المبالغ فيها والتى هى مزيج من قدرة الله ومهارة الفنان قد وجدت فى النهاية من يرفض شراء نسخة منها بعشرين جنيها من سوق الرقيق ! . .

والأدهى من ذلك أن العشرين جنيها التى دفعها عبد التواب أفندى صداقا لعروسه ، على ما سمعت من أمها فيما بعد كانت . . . على عشرة أقساط !

ولما لم أستطع أن أصفع عبد التواب أفندى ، انتهزت فرصة خلوّى بنفسى فى المساء فضربت نفسى عشرين شبشبا

على خدى اليمين ، ومثلها على خدي الشمال ، من أجل عبد التواب أفندى أولا ، وثانيا من أجل الفتاة المسكينة التى حطمت مستقبلها بلا ذنب ، أعنى إقبال .

obeikandl.com

آمل . هذه هى الخمر

حدّث زميل لي قال :

« إنها ساذجة كالطفل ! » . . . هذا ما قلته لنفسى وهي تحملق فى قدح البيرة الموضوع أمامى ، مأخوذة بمنظره ، ثم تخضه بيدها فيتساقط منه الزبد ، فتقول لى ضاحكة ببلاهة واستغراب . . « إذن فهذه هى الخمر ؟ »

وضحكت أنا الآخر لهذه السذاجة المحبوبة من فتاة فى سن العشرين ، تعيش فى عصر أصبحت فيه الشمبانيا غازوزة السيدات !

ومضى السؤال بلا جواب لأن الخادم وافانا بأول ألوان الطعام ، وكنا نتناوله فى عربة الأكل بقطار الظهر العائد من بور سعيد .

وسنحت لى فرصة طيبة ـ لما أسندت رأسها إلى خشب النافذة متعبة من هزات القطار ـ للتأمل بحرّية فى صدرها

الناضج ، وفى عنقها المرمرى ، وفى وجهها الحاوى لارق شفاه وأطول أهداب وأفتن عيون وأجمل خال فى أبدع خدود ، وللتحسر الصامت على أن ماضى شبابى كله على خصبه وعمرانه بأنضر الذكريات ، لا يوجد فيه مثل هذه الصورة ، لا فى الفتنة الشائعة فيها ولا فى خلوها من كل آثار الصناعة والهندسة والتجميل .

والذين خبروا مثلى شيئا من معجزات الصدف يدركون بسهولة بأى الأجنحة كنت أطير فى جنة الأحلام ، لما أذكر أن هذا الكنز الذى أكاد أصبح مالكه الوحيد هو ابن الصدفة وحدها ، الصدفة التي أضلت هذه الفتاة عن منزل خالها فى بور سعيد .

إننى شاب فى الثامنة والعشرين ، ومهنتى طبيب ، وعلمتنى تجارب عشرة أعوام أنه من العبث أن أتزوج من بنت مجموع جلساتها اليومية أمام المرآة ست ساعات ، وتنتظر بلهفة تغيير البروجرام الأسبوعى فى كل السينما توغرفات ، وتعرف من أسماء الكتب السرية أكثر مما تعرف إدارة

الأمن العام ، ولها قصص غرام ، ومجموعة من العشاق تنتظر على باب المسرح ارتفاع الستار ، وتتحدث بطلاقة عن السيارات والممثلين ، وأنواع الشمبانيا والعطور ثم تحرق نفسها إذا اضطرتها الظروف يوما إلى قلى ثلاث بيضات !

أقول إن ذلك من العبث لأنى رجل فقير ، والمرأة الطموح لا تصبر على الحرمان ، ولا أحب أن أكون فى عيادتى طبيبا ، وفى منزلى « برافانا » ومرضعة أولاد !

ومن أجل ذلك كانت عينى متجهة دائما إلى الأسر المتوسطة الحال فى الريف ، أبحث بينها عن بنت متوسطة الجمال والعلم وتدرك بالفطرة أن رأس مالها الوحيد فى مستقبل حياتها الزوجية ، هو نصيبها من الشرف والعفة والكرامة ، وأكل اللقمة السواء بلا تردد ولا تفكير ، وغسل قماط ولدها بلا تأفف ولا اشمئزاز ، وبالأخص السكوت عند ما تطالب فى بعض الأحيان بالسكوت ! . .

وفى اللحظة الحرجة عند ما كدت أيأس من كلتا الفتاتين ، بنت الحضر الجديد وبنت الريف القديم ، ألقت

إلى الرياح الطيبة التي تصادف الانسان مرة فى عمره هـذه الفتاة السارحة بعينيها الناعستين فى حقول القطن الخضراء ، التى تعرض نفسها كالفلم من نافذة القطار . .

إنها تحية السماء لعواطف ، ومكافأة الصبر الطويل .

وفوق أنها ساذجة قد مرت معى أكثر من مرة على حوانيت الأقمشة وباعة الحلىّ وخردوات النساء فى بورسعيد ولا أذكر أنها وقفت مرة على أحدها وقفة المتمنى ، تتطلع بالعين الزانية إلى شجرة التفاح ! . .

والأجمل من ذلك فى نظرى احتشامها فى ثيابها ، وأنفتها من عرض جسمها على أعين المستحمين فى البلاج برخص التراب ، والحمرة التى كست وجهها كله لما فاوضتها فى الاستحمام معى فأخبرتنى بحزم وخجل أنها لم تنزل البحر طول حياتها وأنها لا تملك حتى ملابس الحمام . . .

وفى ذات يوم عثرنا بطفل يلعب بالرمل ولا أحد معه ونادى الطفل أمه فلم يجدها فبكى ، فامتلأ قلبى بالعطف والشكر والتقدير لما رأيتها . . النهاية لاداعى للتفاصيل . . .

كانت تمثالا بديعا لأم محبة ومحبوبة ، وفى الوقت نفسه صورة تامة للفلاحة المصرية المستقبلة كما أتصورها أنا ، جامعة بين الثقافة المتوسطة ، والوجه الطبيعى ، والأنوثة الحية والقلب الحنون .

وفى نهاية الأسبوعين الذين قضيتهما على مقربة منها فى بور سعيد ، أصبحت أستطيع أن أقرأ نفسها فى عينها كما أقرأ فى الكتاب ، ومع جهلى التام لكل شىء عن ذويها وعن ماضيها كان أول عمل لى عند ما عدنا معا إلى القاهرة ، هي إلى بيتها وأنا إلى عيادتى ، هو البحث عن هدية الزواج التى اعتزمت أن أفاجئها بها عند أول لقاء .

وفى العيادة على الرغم من شعورى بالكارثة التى حلت بى من جراء هذه الغيبة الطويلة ، فقد كنت استسمحت مرضاى فى يوم واحد أشم فيه نسيم البحر فى بور سعيد ، بدا لى أن كل شىء فى حياتى قد تغير ، وأن الدنيا كلها قد بسمت لى ، وأن الصور والمقاعد الخرساء كلها تدعو لي بالرفاء والبنين . وورق الجدران نفسه زها لونه فى نظرى وازدهر ، والمرضى

الثلاثة الذين استشاروني في اليومين التاليين خيل لي أنهم شفوا بالسحر ، وأنهم يشاطرونني السعادة بحلم مجهول .

ولما دق جرس التليفون ، وطلبت لأولى العيادات الخصوصية في حياتي الطبية ، ومن منزل في حدائق القبة بينما عيادتي في شارع المبتديان ، شعرت كأن الحظ الموفق محموم ، وكأنه في هذيانه يغمر في دائرة حياتي كل الأشياء .

أنك تعرف بالدقة ما هي العيادة الخاصة الأولى في حياة الطبيب ، إنها ورقة اليانصيب التي تربح ألف جنيه على غير انتظار .. إنها بداية المجد القريب !

ولما كنت أجمع أدوات الاسعاف بمزيج من الغبطة والتفاؤل والاضطراب ، حدثت نفسي بصوت مسموع . . إنني أشتهر !

وفي نفس اللحظة بالذات وقعت مني حقنة على الأرض فانكسرت ، فأخذت غيرها وطردت الفأل السيء بلعنة الشيطان .

ولما كان عليّ أن أزور بيت خطيبتي في مساء اليوم

لأول مرة ، لكي تقدمني إلى أمها ، رأيت احتياطا للظروف أن آخذ معي علبة السوار الذهبي الذي أعددته لشبكة العروس.

وفي البيت المنعزل الذي دعيت إليه ، قابلني شاب وسيم تبدو على وجهه مظاهر الذعر والقلق فأيقظني من الحلم البهيج .

لكن ماذا يهم إن كان الشاب قد طلبني لنفسي أو هو استدعاني لأن اسمي بالصدفة كان مبتدئا بحرف الألف ، وكان الثالث في قائمة الأطباء بدفتر التليفون ، ولأن الطبيبين الأولين لم يكن أحدهما بالعيادة ، وتليفون الثاني كان مشغولا باستمرار . . !

على كل حال لم يكن لي سوي أن أحمد الله على أن الضوء الأحمر الضئيل في الغرفة المسدولة الستار ، لم يدع له فرصة يرى فيها حطام الحلم سابحا في كمد الوجه الكئيب .

وحتى المريضة نفسها التي دعيت من أجل إسعافها ظهر أنها ليست مريضة ، ولكنها سكرانة ، شربت نصف زجاجة من الويسكي كانت تخففه بالنبيذ ، وكما قال لي الشاب المذعور

إنها ليست أول مرة تشرب فيها بهذه الصفة وهذا الشره ، ولـكنها أول مرة تبدو فيها هكذا ثملة كالقتيل ، على الرغم من الاسـعافات المؤقتة التي لجأ اليها الشاب طوال أربع ساعات .

وما هو إلا أن بدأت فى إسعافها على الرائحة المنتنة للـكحول المتخمر ، صاعدة من فمها ، وهي منـكفئة على وجهها فى السرير حتى شعرت أن ظلاما مباغتا قاسيا ، يستلّ من روحي وعينى الشعور والنور .

توجد قصص واقعية فى الحياة ، ولـكنها أعجب من الخيال . . . .

هذا الوجه ، وهـذه الأهداب ، وهـذا الخال وتلك الخدود . . . يالله !

إنها عروسى . . . إنها أنضر ذكرياتى كما أراها الآن أنقاضا قذرة فى سرير نجس ، إنها حلم حياتى يتبدد فجأة على كف شيطان .

وكل شيء فيها كان مصيدة ، وكلها كانت صناعة وتمثالا

من أحط الخزف والحمأ والطين .

كالحلم ، ومن حيث لا أشعر ولا أدرى ما أقول ، هتفت بالجيفة النائمة . . « أجل هذه هى الخمر » . . ! وشعرت أني أجيب على سؤال لم أدر أين ولا متي سمعته قبل الآن . . .

وأردت أن أتناول علبة الحقنة من حقيبتى فتناولت بدلا منها علبة السوار .

ولا أدرى ماذا فعلت بعدئذ ، ولا ماذا قلت ، وكل ما سمعته صرخات من خليلها الشاب الوسيم دوّت فى سماء الليل الساكن يستغيث بالمارة ... مجنون ... مجنون !! ؟

واسطة

كل شخص فى دار رءوف باشا كان يمنحها ابتسامة ، البواب والجنان والخادم الذى حمل رسالتها إلى سيده بعد أن قادها إلى غرفة الانتظار . . ابتسامة من رأى وعرف سيدات قبلها ومثلها يدخلن هذا البيت الذى لا سيدة فيه !

لم تكن بثينة جميلة ولا جذابة ، ولكنها كانت فتاة تغرى بها أنوثتها ، ويغرى بها شبابها ، ويشفع لها عند رءوف باشا مقطع الثياب بمهارة على جسمها اليانع . فما كاد يراها حينما أقبل عليها والرسالة منشورة فى إحدى يديه ، ويده الأخرى تمتد إليها بكلمة الترحيب ، حتى استحالت شفتاه الذابلتان إلى ابتسامة مخلصة ، واستحالت عيناه الخابيتان إلى ذبالتى مصباح وتدفقت من لسانه التحايا تدفق السيل من ميزاب .

* * *

كانت أولى معارك الشباب والشيخوخة على كيان رءوف باشا يوم ماتت شريكة حياته منذ خمسة أعوام ، فأقسم على تراب قبرها أن يفى لها حتى يضمهما اللحد رفاتا إلى رفات ثم كانت ثانية هذه المعارك الحاسمة يوم أرغم رءوف باشا على الاستقالة من عمله فى وزارة الحربية منذ ثلاثة أعوام ، على أثر سلسلة من الفضائح النسائية أثبت فيها رءوف باشا وفاءه لشريكة حياته ، وإخلاصه لذكراها ، وبره بما نذر على قبرها من عهود ! ؟

ومن هذا اليوم توالت عليه انتصارات الشيخوخة ، وتوالت هزائم الشباب ... عيناه أسن الماء فيهما وتضاءل النور ، ورأسه وخطه الشيب وجبينه تفرقت فيه الغضون وتجمعت ، وارتعشت يداه ، وتخاذلت قواه ، وكاد تهدم وتحطم وعاث الهرم فيه ، إلا بضعة منه ظلت تحت أضلعه تغازلها بين الحين والحين همسة من همسات الشباب .

* * *

وضع رءوف باشا منظاره على عينيه ، وهو يجلس على

طرف الكنبة التي جلست بثينة على طرفها الآخر وعاد للمرة الثانية يقرأ الخطاب الذى حملته بثينة إليه .

وظلت هى فى مجلسها صامتة ، يخفق قلبها خفقان الشيوع بين اليأس والأمل ، وترقب عينها بشرهٍ وانتظار كل بادرة تبدو على أسارير وجهه المجوز .

وخلع رءوف باشا المنظار عن عينيه واتجه ببصره إلى بثينة ، فظل يرقبها لحظة والابتسامة لا تفارق شفتيه قبل أن يلقى عليها هذا السؤال :

إذن فأنت ابنة حبيبى وصديقى الجبالى ؟

قالت وقلبها يثب فى صدرها وثبة الرجاء نعم . كان أبي فى الجيش فى الأورطة التاسعة ، وقدأوصانى قبل موته أن أحمل إليك هذه الرسالة إذا احتجت يوما ما إلى عون أو نصير .

إننى اشتغل معلمة فى مدرسة أطفال وأتقاضي راتبا مقداره أربعة جنيهات ولى عشرة أعوام وأنا منفية فى بلد سحيق بجوار أسيوط والشكوى تعتبر جريمة في وزارة

المعارف والويل لمن لا حامي له ولا ظهير .

وبدا التأثر على وجه رءوف وأخذ يردد بين شفتيه « مسكينة . . مسكينة » ثم أهوى على يدها بكلتا يديه واندفع يقول وفى صوته حنان أب وفى عينه سحابة من سحب الدموع

هذا ظلم فادح يابنية ، لا عليك بعد اليوم ، إن وزير المعارف صديق ، وقد كان بالأمس فقط يسألنى إذا كان يستطيع أن يؤدى لى خدمة . . أجل إنه يستطيع ، اكتبي لى التماسا فى الحال وسأحمله إليه الآن وتمنى عليه ما تشائين .

قالت ها هو ذا ، وأخرجت من جيب معطفها ورقة مطوية دفعتها إليه ، فدسها بين الحشايا والوسائد ، واستعاد يدها ، وعاد يتفرس فى وجهها ويقول . . . أجل يستطيع وزير المعارف أن يعمل عملا عظيما ، أن يجعل هذه الشفاه الجميلة تبتسم ، أن يجعل رفات صديق وأخى الجبالى بك ينام فى قبره مستريح البال . . . ما أشد الشبه بينك وبين أبيك ، لك قوامه الرشيق ، لك وجهه الصريح ، لك عيناه الزاخرتان

يتبل الملوك ، وشجاعة أبطال التاريخ القديم ، لك فمه الذى ينفرج عن فتنة الحور والولدان . . أجل أراه فى وجهك الآن ... سنة ١٩١٠ ، ثورة القبائل فى كوردفان ... ضلالنا معاً فى غابات خط الاستواء ، السبع الذي فاجأنا هناك وبنادقنا خلو من الرصاص ، يزأر كما يزأر الرعد وتتوهج عيناه كأنهما جمرتان ، وتقف نيوبه الزرقاء فى فمه كأنها عمد يتفتح بينها باب من أبواب جهنم ! . . يالها أيام كانت أخوّتنا فيها فوق المحن والعواصف والمخاوف والأهوال ! . . تمنّ على يابنية . فلو أننى ميت لسعيت إليك أجرّ أكفانى من أجل ذكرى أبيك ! . .

وبين نداء مرآتها كامرأة تريد أن ترى فى عينها لأول مرة نبل الملوك ، وبين شعورها بالضعة من هذه الذكرى المزيفة لأب لم تعرف لحياته الوضيعة مفخرة من هذه المفاخر ، وبين الأشفاق على هذا الرجل الطيب أن تفجعه فى تاريخ كأن هذه الذكرى فيه أنضر وأغلى الذكريات ، وبين الاشفاق على نفسها أن تفجع نفسها فى هذه البارقة من بوارق

الأمل إن هى وفت للحق ، ووفت لتاريخ أبيها ، وقالت لرءوف باشا إن أباها هذا لم يكن سوى جندى بسيط ، وإن هذا الجندى البسيط لم يكن سوى خادم ، وإن هذا الخادم كان فى سنة ١٩١٠ رفاتا لم يترك فيه الدود غير العظم والتراب . . . بين هذه العواطف المضطربة ذهلت بثينة عن نفسها ، وعن تاريخ أبيها ، وعن كل ما كان رءوف باشا يشير اليه من أقاصيص ، فاستسلمت فى ذهولها اليه فضمها إلى صدره ، ثم وضع على وجهها قبلة طويلة عمياء ، ضلت مكان قبلات الأب من جبين بثينة ، وتدحرجت كأنما بلا قصد إلى فمها الذى كان ينفرج لرءوف باشا عن فتنة الحور والولدان . !

* * *

جلست بثينة تنتظر عودة الباشا من وزارة المعارف ، والأمل يبسم فى وجهها مرة ، والقلق يعبس فيه مرة ، وألوف من خواطر حياتها الماضية ، ومستقبلها الموضوع فى كف القدر ، تحلّق فى خيالها طائرة كالأشباح بين بيض وسود .

وأخيرا عاد رءوف باشا ، فدخل عليها يمسح العرق عن جبينه ، ويستعيد بالصمت والجلوس هدوء أنفاسه المتوالية ، وتشيع فى وجهه المحمرّ ابتسامة مشرقة عدتها بثينه أولى بشائر الآمال .

— انتهى يا عزيزتى كل شىء . . . تعينين ناظرة ، وفي إحدى مدارس القاهرة ، وبمرتب لا تحلم به فتاة . . . دعينى أسترح ثم أقص عليك كل شىء .

وطفر قلبها طفرة أحست أن أركان صدرها تتصدع لها من الفرح . و قبلت جبينه قبلة خالصة ، تخطت فيها أغلال السن ، وفوارق المركز ، وجمعت فيها الشباب والشيخوخة على بساط عرس منضود .

واسترد رءوف باشا هدوء أنفاسه وابتدأ يقص عليها تفاصيل الحديث . . .

— ألم أقل لك إن صديقى وزير المعارف لا يبخل علىّ بشيء ؟ حينما دخلت عليه عركت أذنه بعنف — وكم عركت من قبله آذان وزراء ! — ثم وضعت أمامه التماسك ، وقلت له

اكتب هنا ما أملي عليك . . . ماذا بك ؟ ماذا بك ؟ مريضة ؟ أستدعى الطبيب . . . ؟

فى الواقع كان وجه بثينة يصفرّ صفرة الموت ، وهى تنهض من مجلسها بجواره نافرة كأنما لدغتها عقرب ، وتجيب على أسئلته المتوالية بصوت كأنه حشرجة محتضر :

— لا شيء ، لا شيء ، أكمل ياسيدى الباشا حديثك ماذا أمليت وماذا كتب الوزير على هذا الالتماس ؟

— كتب جملة قصيرة ولكنها عظيمة المدلول « تعين بثينة الجبالى ناظرة لمدرسة . . . بالقاهرة ، وبمرتب . . . ابتداء من شهر اكتوبر الحالى » فهل كنت تطمعين فى أكثر من هذا ؟ أنبئينى ماذا ترغبين ؟ باب الوزير مفتوح لي فى أى وقت لأى رجاء . . .

— وكتب هذا كله تحت الالتماس ؟

— أجل ، أجل ياعزيزتى . . . فهمت — وقهقه قهقهة عالية خيل لبثينة أنها تحطم ما أبقى عليه الشؤم فى نفسها من قوة أعصاب — إنك تستكثرين على وزير المعارف أن ينفذ

بهذه السهولة ما يشاء . . . اطمئنى ياعزيزتى فوزارتنا مسارح تمثل عليها كل يوم ألوف من هذه الروايات !

كانت بثينة مستعدة أن تصدق رءوف باشا لو قال لها إن وزير المعارف سينزل عن مكانه فى الوزارة ، ويضعها فيه لكن حكاية هذا الالتماس ، وتوقيع الوزير عليه بالذات ، سلّ من قلبها كل يقين وإيمان . . .

هرب الدم من وجهها ، وطفرت من عينها الدموع ، ثم مشت تجر خطاها حتى أتت مجلسها الأول فدست يدها بين الحشايا والوسائد ، وأخرجت التماسها من حيث وضعه الباشا فى ساعة تجلّيه ، وقدعثرت به بعد خروج الباشا لمقابلة الوزير ، وظنته بلا قيمة فى عين رجل له هذه الدالة كلها على معالى الوزير ! .

واستجمعت قواها الخائرة ، فقدمت له التماسها بيد ، وصفعته بالأخرى صفعة دوت لها أرجاء المكان . . .

وتركته ، وتركت له كلمة تجمعت فيها مصائبها جميعا ، كانت كل ما استطاع أن ينطق به لسانها المشلول . . .

— يا نذل !

وخرجت إلى الطريق تشيعها ابتسامة الخادم والجنان والبواب ، ابتسامة من رأى سيدات قبلها ومثلها يخرجن من هذا البيت الذى لا سيدة فيه !!

obeikandl.com

التعب

لبث محمد بك فى المرقص حتى بعد منتصف الليل بساعات . على أن هذا الزمن الطويل الذى قضاه هناك ، من الساعة التاسعة لم يكن فى نظره زمن لهو وعبث ، أو لذة وسرور ، كما يكون عادة فى أنظار رواد المراقص .

لقد شبعت نفسه من هذه المناظر المخنثة حتى سئمتها ، فباتت عيون الراقصات أبرد من أن توقد فى نفسه شهوة أو شراهة ، وباتت كؤوس الخمر مهما توالت واطّردت ، أعيا من أن تورث رأسه المصفح نشوة ينسى فيها همومه ، أو يتعالى بها عما يجول بنفسه الخاملة من كآبة وموت وفتور . وبات وهو ينظر إلى هذه الدنيا المتحركة من حوله نظرة الملول لا تخفق فى خياله أمنية سامية ، ولا يضطرب فى

سماء مستقبله كوكب لماع .

المال بين يديه كثير لا يفنى ، والفراغ فى أوقاته متسع لا ينقطع ، والشباب بعد أن هدأت فى رأسه حماقته أخذ فى الذبول . والجاه والأهل وهم زينة الحياة لم يكن له منهم نصيب ، فقد كان يعيش فى غرف منقطعة بعمارة كبيرة فى حى آهل من أحياء القاهرة ، وكانت تلى أمره فيها خادم حسناء كانت ضحية من ضحاياه . وكل المطامع التي يجرى وراءها الناس كانت فى عينه سخريات قاتلة. تأكل أجسامهم وتفنى عقولهم ، وتشترى أرواحهم بثمن بخس يسمونه إكليل المجد والفخار . والايمان بالله كان فى ذهنه الراكد بلاهة مجسمة فى رءوس أصحابها كل نصيبهم منها جوع في الصوم وتعب فى الصلاة ، ومجهود ضائع فى رفع أكفهم للسماء تضرعا ودعاء ! والذمة والشرف والضمير كانت فى نظره ألفاظا مرنة تسع المعانى التي تواضع عليها الناس ، وتسع بجوارها شباكا منصوبة للصيد ينهض الضعاف فى حمايتها حتى يتزن البقاء ، ولا يعرف الأقوياء عنها إلا ما يعرف

أهل الأرض عن عوالم السماء . . .

وهكذا عاش محمد بك حيوانا يدل على ذلك الأصل المجهول الذى تسلسل منه الناس .

عاش طينه عجيبة ، فيها تراب الجهل ، وفيها ماء الغفلة وفيها أثر من آثار الألحاد الأبله والفلسفة الحمقاء !

وثقل رأسه فى هـذه الليلة من فعـل الخمر والموسيقى وضجيج الراقصين ، فارتدى معطفه وقفازه ، وودع رفقاءه ، وانصرف إلى سيارة تنتظره بالباب .

***

كان الليل باردا ممطراً ، وكانت كآبة الشتاء تتجلى فى تلك السحب السوداء التي حجبت صفو السماء ، وفى تلك المدافع الجبارة التي كانت تقصف راعدة فى جوانب الفضاء ، وفى تلك الرياح النافخة التي كانت تعزف على أوتار الغصون عزيفا موحشا ، كأنه أنين الأوراق الذابلة ، ساقطة من أشـجارها ، مستسلمة إلى قدرها المجهول بين الوحول

والأكدار ، وفى تلك الروح الحزينة التى لفّت كل شىء ، وملأت كل فجوة من فجوات تلك الطبيعة الهرمة واستبدت بكل شبح من أشباح هذا الليل العاصف الطويل .

وكان محمد بك وهو يواجه هذا الجو الغاضب يشعر له بروعة مخيفة تضطرب فى خرائب نفسه المتداعية ، فيضغط رأسه على عنقه ، ويغرس هذا بين كتفيه لعل فى فروة المعطف متسعا للجميع يتوارون فيه من هذا العدو القادر ، ويدفن يديه في جيوب هـذا المعطف حتى لا ينفذ الزمهرير من نسيج قفازه السميك ، ومع كل هذا فتلك اللحظة التي قضاها بين باب المرقص الدافئ ، ومقعد السيارة الوثير كانت كافية لتؤلم وجهه ، وتصيب أنفه بالزكام ! .

ولم يكن يؤلمه والسيارة تهتز به هزاتها الناعمة فى طريقها إلى المنزل إلا ذكرى تلك اللحظة الثانية ، التى سيواجه فيها قسوة هذا الشتاء المظلم أمام باب الدار حتى إذا وقفت به السيارة هنالك ، قفز قفزة واحدة استجمع فيها كل قوته ووصل بها إلي هذا الباب الكبير الذى كان مفتوحا له طول

الليل ثم أغلقه من ورائه وابتدأ فى صعود السلم آمنا وطأة الريح ، ولفحة الزمهرير .

وعلى السلم خيل اليه فى نوره الضئيل أنه يرى كتلتين من لحم بشرى تعتمدان الجدار بظهريهما ، وتتلاصقان من الجنب كأنما تبحث كلتاهما فى حمى الأخرى عن الدفء والحياة !

فى ثياب ممزقة قذرة نام الطفلان البائسان هذه النومة المحزنة على رخام السلم البارد . فوقف الرجل أمامهما وقفة لا يدرى أحد أهى وقفة إشفاق لا عهد له بهذه النفس الميتة أم وقفة فلسفة رحيمة تحسن القياس بين آلامه هو — فى القرو والمعطف — وبين ابتسامة هذين الطريدين فى العرى والخفاء ! . .

نظرة إلى تلك الشفاه المنفرجة بابتسامة راضية قانعة ، وحلم سعيد معسول ، وأخرى إلى تلك الصدور تعلو وتهبط بأنفاس الرضا من كل غايات الحياة بالكفاف ، وأخرى إلى تلك الأذرع العارية تضم فى أحضانها جسم شريكها فى

البؤس ، فتحوطه بشيء من العطف الذي حرمته منه البشرية الظالمة ، وشيء من الدفء الذي بخلت به عليه ثورة الطبيعة ، فى ليالى الشتاء ، تحت هـذه النظرات المشفقة نسي الرجل نفسـه ، وشعر أن مطرقة هائلة تهبط من السماء على رأس ذلك الغول المادى الذي ملأ أركان نفسـه فتحطمه تحطيما ، وأحس أن روحا جديداً ينساب إلى هذه النفس فى حاشية من الرحمة والحنان واليقين وكل عاطفة طيبة حرم منها شبابه الجاف الضرير . .

ركع أمام الطفلين فرأى فى تقاطيع وجهيهما وتجاعيد شعريهما أنه أمام طفل وفتاة ، وكأنهما فى هذا الحضن عروسان فى شهر عسل حزين . . ومس الطفل بيـده فأفاق من نومه مذعوراً وأيقظ الفتاة فى حركة كان كأنما يهم فيها بالفرار ، إلا أن نظرة الرجل الرحيمة طمأنتهما قليلا ، فعلما أنهما أمام رجل ليس بشرطى ولا خفير ! وازدادت طمأنينتهما لما قال يخاطب الطفل :

— أأنتما هنا يا بنى منذ زمن طويل ؟

— فأجاب الطفل :

— منذ سمح لنا صاحب البيت بأن ننام فى هذا المكان الدافىء الأمين !

وأكملت الطفلة . . .

— الرجل الأسود الطويل . . .

قال :

— وهل لا يؤلمكما البرد هنا ؟

قال الطفل متنهدا :

— البرد ؟ وماذا تقول إذن فى رصيف الشارع لو نمت فيه ليلة ؟ إنه مؤلم . . . ملعون . . . إننا هنا . . — ثم رفع عينيه يجول بهما بين هذه الجدران الشاهقة واستمر يقول — . . . فى مكان لم ننعم بمثله أبداً ! . . .

وأخرج محمد بك من جيبه ريالا وعرضه على الطفل فنظر له هو وأخته نظرة فرحة غريبة لكنهما لم يمدا له يداً ، بل انتقلا بعينيهما من وجه الريال إلى وجه المحسن الكريم كما توهماه ، وقال الطفل فى صوت متهدج :

— ماذا نصنع بهذا يا سيدى ؟ سيأخذونه منا غدا ، ويقولون إنكم لصوص ، خير لنا منه قرش أو رغيف !

وهنا كان الرجل قد تراكمت نفسه كلها فى دمعة انحدرت على خده فرد الريال إلى جيبه وأعطاهما قطعة بخمسة قروش ثم تركهما إلى ما كانا فيه من نشوة وابتهاج ، يضعانها بعناية فى صندوق من الصفيح كانا يجمعان فيه أعقاب السجائر من الطريق ، وصعد هو إلى غرفته بقلب متألم خفاق .

كانت الخادم بانتظاره جالسة على مقعد مستسلمة إلى نوم متقطع ، فلما دق الجرس هبت فزعة وفتحت له الباب .

لا تقريع فى هذه الليلة ولا عتاب ، والجبين العابس ليس به أثر لقطوب ، والعين الجافة ندية بالدموع ، وهكذا رأت الفتاة فى سيدها خلقا جديداً .

وكان هو بدوره ينظر اليها نظرة طويلة لم يخلع فيها المعطف والقفاز كما كانت عادته بل كان ساكنا سكون الصنم ، فتولاها عجب شديد .

قال :

— « نجية . هل رأيت البؤساء ؟ لماذا لم تعطيهم طعاما ، لماذا لم تجودى عليهم بغطاء من تلك الأغطية التى تزحم هذا السرير ، بل لماذا لم تأت بهم إلى هنا ، إنهم مساكين فى حاجة إلى العدل والرحمة والحنان » .

كانت نجية تنظر إلى سيدها الآن نظرة غريبة ، فقد خافت أن يكون الرجل مجنونا ، فأجابته فى هدوء :

— أى بؤساء تعنى يا سيدى ؟

قال :

— أما رأيتهم على قاعدة السلم كأنهم ملائكة فى جحيم ؟

قالت :

— أبداً ياسيدى . أنا لا أرى البؤس والبؤساء إلا حينما أنظر إلى نفسى فى المرآة ، وحينما أنظر اليك وأنت قادم لتطبع على شفتى تلك القبلة الباردة ، التى أصبحت كل نصيبى من غرام الشباب .

وأحس الرجل بهذه الطعنة فى صميم قلبه فهوى بناظريه إلى الأرض ثم رفع رأسه اليها بعين مخضلة بالدموع وقال :

— نجية ! إن استغفرتك عن كل ما أصبتك فيه من شرف وكرامة ، وعن كل ما عاملتك به من قسوة وظلم ، فهل تغفرين لى ؟

وتطلعت اليه بعين مكسورة الجفون .

فاقترب منها محمد بك حتى التصق صدره بصدرها ثم احتضنها بين ذراعيه وأهوى على شفتيها بقبلة . . لم تكن باردة كما كانت قبلاته دائما بل كانت حارة تكوى شفتيها بحرارة الشباب المبعوث من قبره ، وحرارة النفس المستيقظة من سباتها الميت العميق . ثم ناجاها فى نغم منخفض :

— سنكون زوجين من الغد أمام الله وأمام الناس . وسيكون لنا ولدان من هذين الطفلين الصغيرين اللذين ردّانى إلى الحياة وأزاحا عن كاهلى ذلك الكابوس الخانق الذى صور لى الدنيا ضعة وجموداً وشهوات .

ثم رفع يديه إلى السماء هاتفا :

ـــ رباه . ها أنذا عائد إليك . . . أني أسألك العفو والغفران .

كان الطفلان الآن يحلمان في اليقظة التامة ، بهذه الثروة المؤاتية ، وهذا الرزق الجديد . لقد منحهما القدر حياة يوم مترف سعيد بلا عمل ولا مجهود ، فاتفقا على أن يجعلاه عيداً ، وطفقا يضعان بروجراما لهذا العيد .

لا سجائر ولا أعقاب في الغد ، ولا تعرض لشتائم الجمهور ولا لعصي رجال البوليس . . . هكذا اتفقا أولا على تمضية يوم العيد ، ثم اتفقا ثانيا على أن يأكلا في هذا اليوم مما يأكل الملوك . !

وهنا اختلف الطفلان ، هو يزعم أن الملوك يفطرون على الفول بالزبدة ، وهي تزعم أنهم يفطرون على البيض المسلوق . . . وهو يزعم أنهم يأكلون في غدائهم كوارع ، وهي تزعم أن غداءهم كباب ! . .

وإذ هما في هـذه الأحلام يختلفان ويأتلفان ، إذ رأيا

محمد بك عائدا إليهما من رأس السلم ، وفى يده عصا يتوكأ عليها ، وهو يسترق الخطا ، لكيلا يزعج بخطاه أحلام النائمين ، فتعلق كلاهما بالآخر جزعا وفزعا حينما رأياه ، وتبادلا نظرة تفاهما فيها على الخطة المثلى للفرار من هذا المحسن الذى خيل لهما أنه نادم على ما قدّم من إحسان . . .

واستجمعا كل قواهما ، ثم هبا فى وثبة واحدة انتظمت من السلم خمس درجات ، فأذا هما فى الطريق يجريان بخفة الأرانب وسيقان النعام ، وإذا محمد بك من ورائهما يلهث وينادى ولكن بلا مجيب !

وتحت سلم منزل صغير فى حارة مظلمة جلس الطفلان يستردان ما ضاع من قواهما المتعبة ، ويتحسسان القطعة الفضية باطمئنان ، ويضحكان همسا لنجاحهما فى الفرار . . . الفرار من الجنة والنعيم . !

ابن الله

« . . . كنا أسعد زوجين - أيها السادة - وأنعم حمامتين آوتهما أغصان الربيع ، وكانت الشهور القليلة التى قضيناها معا قطعا من نعيم الحياة . وكان يخيل إلينا أن الشتاء الذى يحطم قلوب الناس بالألم ، ويملأ عيونهم بالشجون ، سوف يضل سبيل وكرنا الآمن ، وسوف يدعنا نرتع خالدين فى روض الربيع .

سألت زوجتي يوما وكنا نستحم فى أشعة الشمس الصافية صباح يوم من أيام أبريل :

هل يمكن أن تظل الكأس هكذا حلوة نقية ؟

قالت ولم لا ؟

قلت وهلا نمل إذا ظلت كذلك ؟

فاقتربت منى بدلال وانعطاف ، ثم أحاطت عنق

بذراعها ، ونظرت لى نظرة طويلة فرحة ، تدفقت فيها عيناها حلاوة وطراوة ، وقالت وصوتها يرن رنين اللطف والحنان :

هل تفكر في الملل هكذا سريعاً ؛ إذن دعنى أحمل إليك اليوم بشرى ، تطرد من ذهنك خاطر السوء .

قلت : خيراً .

قالت : أما للبشير من ثواب ؟

قلت : أعدك بشرفى .

قالت : ألا تستطيع أن تحزر ؟

قلت : أبداً .

قالت : أما لك من أمنية تصبو إليها ؟

قلت : أمنيتى أن أراك إلى جانبي دائما ، نعمة فى البؤس ، وشريكا في الصفو ، وسلوى إذا عز العزاء !

انفرجت شفتاها عن ابتسامة هانئة ، ثم فاجأت خدى بلمسة قاسية من أناملها الرقيقة وقالت :

يالك من خبيث ! أمنية أخرى . أمنية شيوخ لا أمنية

شـباب ، أمنية نصبو إليها معاً ، ويوشك أن ينحسر عنها حجاب الغيب . . .

قلت : دعيني من التخمين .

قالت : إني شعرت بحركة !

فتبسمت من قولها ضاحكا وقلت :

وما يعنيني أنا من هذا الشعور ؟

قالت : أغبي أنت ؟ إنها في أحشائي ، إنها جنـين يرتكض هناك !

جنين . . . يرتـكض . . . هناك ! ؟

إمرأتي يرتـكض في أحشائها . . . جنين ! ؟

هل يمكن هذا وأنا . . عاقر ؟

لم أستطع لأول وهلة أيها السادة أن أوفق بين هذين النقيضين . فظللت لحظة ساهم الوجه كأنما غمرني فرح هائل بهذا النبأ الفظيع ؟

ثم تمثلت لي الجناية على شرفي شـيئاً فشيئاً فأحسست أن صاعقـة تسقط على رأسي ، وأن قبراً يتفتح أمامي ،

وشددت قبضتي كأنما أستعد للقضاء على عدو عنيد .

تولاني جنون فخطر لي أن أخنقها ، أو أروى الثرى من دمها ، لكن من يبقى للمجرم الثاني ليطهر من أنفاسه جو الحياة ؟

وكانت تتقهقر أمامي مرتاعة ، كما يتقهقر تائه الغاب أمام نمر مخيف ، فصحت بها زائراً :

عرضي يا امرأة ! شبابي وحياتي وآمالي أين ذهبت بها جميعاً ياشقية ؟ في أية مقبرة دفنتها ؟ في أية بؤرة دنستها بالعار ؟

رباه : أما من بحر من الدم أغتسل فيه ؟

ضحكت الأفعى ضحكة مغتصبة ، وقالت في صوت مختنق :

كفى ، كفى بالله ! إنك تخيفني ، إنك تقتلني ، إنها منك دعابة مميتة . اضحك . ابتسم . أرجوك . دعني بالله !

حدقت في عينيها المتوهجتين في وجهها الشاحب ، فاذا هما تشعّان كعهدي بهما ، وإذا في شعاعيهما الى جانب الخوف والأسى ، صفو ورحمة ونقاء .

كانت كالطفل الساذج تخيفه بوجه عفريت فيتقيك بذراعيه ويتوسل إليك فى صياح وبكاء .

أيها السادة :

لتكن القلوب فى ثورتها أشد من الحجارة قسوة ، فأن من الحجارة ما تتفجر منه الأنهار . . لقد شعرت أنى أجبن أمام هذا الحسن المغلوب ، فتلتنى صورة ذلك الحب الذابل فى إطارها المنكود ، فخفضت رأسي واندفعت إلى الباب هاربا ، إشفاقا على الشعلة المتقدة أن تطفئها الدموع . وأى عزم ، بل أية قوة ، تقف أمام المرأة الباكية الحسناء ، فلا تذيبها النظرات والزفرات والدموع ؟

وسرت فى طريق إلى الدكتور سيداروس طبيب الأسرة وصديقها بطرف ذاهل وعقل مسلوب ، وقلب تتنازعه شتى الغصص والآلام .

إذن كانت نظراتها الباسمة زوراً ، وكانت قبلاتها الحلوة خداعا ، وكانت ضحكاتها الرنانة ترابا تذروه الشقية فى عين عمياء ، وألفاظها التي كانت تقطر عسلا ، كان مزاجها من

علقم وصاب ! .

وتلك الساعات التى كانت تقضيها بجانبى ، كانت تملؤ ما بالتفكير فى رجل آخر يبهجها خياله ، وتسعدها ذكراه فتبسم لى من حيث تراه هو فى ضبابة حلم لذيذ . وتقبلنى من حيث تتصور فاه هو ينبوع الهوى والهناء !

وتواردت إلى ذهنى المضطرب صور متعددة لوجه ذلك الغادر اللئيم ، ثم حصرت التهمة أخيراً فيه ... هو بعينه فما فتىء يزورنا مرة فى كل أسبوع ، وطالما سمحت لها بالخروج فى حمايته ، ويالها من حماية ، حماية الذئب للنعاج !

ولماذا أغش نفسى ؟ لقد رأيتهما يتضاحكان مراراً . . . منى طبعاً ! ورأيتهما مرات يتهامسان عند مارأياني من بعيد.. يالله ! كم كنت غبيا أبله الماذا يارب لم أفهم كل هذا من زمان؟!

ليكن المجرم ابن عمها ، أو ابن خالها ، أوابن أى شيطان من ذوى قرباها أو ذوى قرباي ، فهل هما ملكان ؟ وهل يحول بينهما إلا حكم العادات والشرائع فاذا استطاعا أن يتناسيا هذا الحكم يوما فى حضرة الليل والوحدة والشباب

ألا يعودان إلى حيث كان المصرى القديم يتزوج من أخته فلا يشعر لهذا الاثم بخزى ولا عار ، أو إلى أبعد من ذلك ، إلى حيث كنا سواما لا نخضع لعادة أو شريعة أو نظام ؟

نحن ضباع أسيرة سجنتنا التقاليد والأديان فى أقفاص من حديد ، فزهدنا فى نبش المقابر ، وعففنا عن أكل الرمم ، وتجلت علينا تقوى العاجز ووداعة الأسير . حتى إذا حطمت أقفاصنا يوما عادت دعتنا وحشية . وعفافنا شرها وتقوانا نذالة ، وزهدنا شهوات ! !

أطلقوا الحرية للضباع المغلولة يوما ، ثم انظروا ماذا تفعل الضباع !

وكان النذل يضحك منى دائما . . . طبعاً !

وكان يجلس بين أصدقائه ، وربما أصدقائها هى أيضا ، من يدرى ؟ ليس للمرأة قرار تنتهى عنده إذا سقطت . إنها كشارب الخمر عند ما تتذوق لذة الاثم فى كأسها الأولى هيهات أن ترجى لها توبة أو رجوع . . . كان يجلس بينهم فيضربون بى المثل فى الغفلة والعمى والبلاهة . . .

وبالطبع ؟ كان الناس يحترمونني من أجلها ، ويرحبون في شخصي بشخصها ، حتى إذا خلوا إليها أو إلى أنفسهم طفقوا يستهزئون !

وشرفي كان ولا شك سمر المجالس ، ومضغة الأفواه !!

وهذا الجنين ؟ ترى في أي لون يكون شعره وعيناه ، أشبيها بي أم شبيها به ؟ وماذا يقول الناس عنه غداً إذا لم يروا في أنفه تلك العقدة الرومانية العالية التي امتازت بها أسرتنا من زمن طويل ! !

الحق أيها السادة أن هذه الهواجس كوتني بمكواة من نار ، فشعرت أن دمي يحترق ، وأحسست أن شهوة القتل تتسلط علي من جديد ، وبدا لي كل شيء أمامي مخضبا بالدماء . ورأسي هذا أحسست أن فيه زلزالا هائلا يوشك أن يتمخض عن بركان يغرق الخائنة وصاحبها في بركة من حمم ونار . . .

وأخيراً وجدت نفسي في عيادة الطبيب ، فاستأذنت ودخلت ، ثم أخذت معه في حديث .

— هل تذكر يا دكتور أنك أجريت لى عملية منذ تسعة أشهر تقريبا !

— نعم

— أتذكر أنك قلت لى يومئذ قبل أن تجري العملية إنها لن تذهب بغير تضحية ؟

— نعم . وأذكر أنك رضيت أن تصبح بعدها عاقراً ، وأننى استكتبتك إقراراً بهذا الرضاء .

— ألا يمكن أن تكون مخطئاً يومئذ ، ويكون هذا العقم خرافة ؟

— يمكن إذا تقوض الطب وأصبح كله خرافات !

— أواثق أنت ؟ أتستطيع أن تؤكد لى بشرفك أن قوى الوجود جميعا أعيا من أن تهبنى ولداً ؟

— نعم . وأقسم بشرفى .

— فكر يا دكتور . فأنت مسئول بهذا القسم أمام الله وضميرك عن دماء تهدر ، وأرواح تحتضر ، وبيت ينهار .

— لقد فعلت وأكرر لك قسمى .

— دكتور . . . قد أتتنى اليوم زوجتي تبشرنى بأول حركة من حركات جنين .

وتنبه الطبيب عندئذ ، وكان يلهو عن النظر إلى بمبراة يعبث بها فى قلم ، وكأنما أحس فى الأمر خطراً فوق ماقدّر ، وشعر أن عاصفة تهدد ناحية من نواحى السلام ، فقطب جبينه وعبس لحظة واحدة ، ثم أمرّ يده على جبهته بقوة ، ولشد ما عجبت حينما رأيت أساريره تنفرج ، ورأيته ينظر لي بسخرية ، ثم يضحك منى ملء شدقيه !

قلت : وفى صوتى ثورة الغضب :

عفواً يا دكتور . أنا لست صديقا هنا . أنا مريض يدفع أجراً . وما أظن وجهى وجه نسناس ، ولا أرى على صدرى مرآة مقعرة ينظر الناس إلى أشكالهم فيها ويضحكون ! ضع نفسك مكانى ، وقل ماذا كنت تفعل لو أن لك زوجاً تراها ملكا تنزه عن عيوب الناس ، ثم أتتك زوجك هذه تبشرك بخليفة ، أنت الرجل العاقر العقيم . . قل !

وكان الطبيب ما زال يتفرس في وجهى بشراهة محنقة ،

فأجاب ضاحكا :

أو لست أعتقد فيها الشرف والطهارة ؟

قلت : نعم

قال : إذن كنت أوقن فى الحال أن الأرواح الخاطئة قد تظاهرت تحت عرش الله ، فشاء سبحانه وتعالى أن يبعث إلى هـذه الأرض البائسة بمسيح جديد ! ! . . . كنت أفرح وأعتقد أنه ابن الله ! . .

غاظنى هذا التهكم الجارح من رجل أعده صديقى ؛ فصحت به ثائراً :

احترم مصائب النـاس يا رجل ! أطبيب أنت أم « أرجوز » ! ؟ . .

قال : لا .. لا .. إلا الشتائم ! ثم دعنى أسألك بدورى ألم تأتنى هنا مع زوجتك منذ عشرين يوما ؟

قلت : نعم .

قال : أتذكر أنها كانت مريضة ؟

قلت : نعم .

قال : أتذكر مم كانت تشكو ؟

قلت : وتفكيرى متجه كله إلى الدهشة من هذه الأسئلة العقيمة :

كانت تطمث أفلاذاً من دم متجمد !

قال : أأنت عاقل ؟

قلت : كذلك كنت قبل أن أراك !

قال : فكر يارجل !

ثم أمسك بحلمة أذنى بين سبابته وإبهامه ، فضغطها ضغطا مؤلما ، كأنه يعاقب طفلا على ذنب جناه ، واستمر يقول :

هل عرفت امرأة تحيض ، ثم تحمل ، ثم تشعر بالحمل يتحرك فى أحشائها ، وكل ذلك فى عشرين يوما ؟ إن الله جل جلاله يصنع هذا فى خمسة أشهر ، فهل لديكم صانع آخر يستطيعه فى عشرين يوما ؟ . . فكِّر يارجل ! نحن فى أول أيام إبريل ، ولكل إبريل أكذوبة ، ولكل سعيدة من

النساء فى هذه الأكذوبة نصيب . والحب ياصديقى نؤوم توقظه المرأة بأمثال هـذه المفاجآت !

شعرت عندئذ أن عقلى يمس فى هـذه الأزمة قراراً وبدلا من أن يظل هاويا فى ذلك البحر العميق ، بحر الشكوك والأوهام ، ارتفع بقوة حتى أشرف على السطح فرأى النور وشم النسيم ! .

واستحييت من نفسى وصديقي ، فنظرت إلى الأرض واستغرقت فى لذة هادئة وذهول جديد . ثم عاودنى اليقين كله ، وتبخرت من ذهنى الشكوك كلها ، وعجبت لنفس تقيمها كلمة وتقعدها كلمـة ، ثم حدثت روحى فى صوت مسموع :

حقاً ما أسرع ما تتهاوى بعقولنا خواطر السوء ! ! »

* * *

وسكت الراوى ، فظل السامعون سكوتا ، كأنما تشربتهم روحه أجمعين . . .

كانوا جماعة من الأصدقاء يجلسون إلى نادٍ على شاطىء

النيل ؛ فيسمرون هناك على ضوء القمر ، ويقصفون على سكينة الليل ، ويلثمون ـ وكلهم شفاه ـ روح الربيع .

وكانوا يتحدثون عن أكاذيب أبريل ويروون عنها شتى العجائب ، لكن قصة من هذه القصص لم تنل من إعجابهم وألبابهم ما نالت قصة هذا الراوي الأخير .

وانتظروا جميعاً بصبر ذاهب أن يكمل الرجل حديثه ، لكنه تناساهم تماما ، ثم أشعل لفافة تبغ ، وطفق ينفث دخانها فى أناة وسكون !

فصاح به أحدهم متعجلا نهاية الحديث ؟

وزوجتك المظلومة ، كيف وجدتها عند إيابك ، وهل غفرت لك ترويعك إياها بهذا الوجه المخيف ؟

فأجابه الراوى ببرود :

زوجتى ؟ من قال لك إنى متزوج ؟

فهاج السامعون وماجوا ، وصاح به سامع آخر :

إذا لم تكن هذه المرأة زوجتك فعلام كانت هذه الثورة الجوفاء ؟

ثم أهاب به ثالث كأنه يعقب على سؤال أخيه :

ولماذا لم تتركها تبحث لطفلها عن أب صالح سواك !

فأجاب الرجل ضاحكا :

سادتي :

لقد كذبتكم ، فعفوا ! ألسنا اليوم فى أول أيام إبريل ؟!

obeikandl.com

مصرع حمار . !

عثر لأول مرة فى منتصف الطريق بين القرية والسوق وكان الوقت ظهرا وشمس يوليو تسكب على الأرض شواظا من نار .

وكان حمار الحاج ياسين قليل العثار . . .

ولم يكن بالطريق فى هذه الساعة أحد ، ولا شجر فيها ولا ظل ، وقضبان السكة الحديدية الممتدة على جانبها تكاد تنصهر تحت وقدة الهجير .

وأحس الحاج ياسين وهو يتطي حماره عائدا به من السوق أن لهذه العثرة ما بعدها ، فقد كان الحمار يلهث على غير عادة وكان العرق يتصبب من جسمه الناحل الهزيل .

ثم عثر الحمار عثرة أخرى ، ثم عثر عثرة ثالثة ، ثم

سعل سعالا جافا خرج من حلقه كأنه حشرجة خائرة فى صدر مأزوم . . . وأخرج لسانه الأبيض المتسخ من بين فكيه وتدلّت أذناه .

لم يحدث لحمار الحاج ياسين شيء مثل هـذا فى ماضيه ، ولذلك لما عثر للمرة الرابعة ، وبركت قوادمه فى الأرض ، وثب الحاج ياسين من فوق ظهره ، وفى قلبه إحساس قوى بخطر مبهم قريب .

ولم يكد الحمار يستوثق من نجاة سيده حتى خر صريعا على جنبه ، ومد عنقه ، وألصق رأسه بالأرض ، وحرك ذنبه حركات ضعيفة متعبة ، وتدافعت أنفاسه متوالية عميقة كأن فى صدره جوعا وظمأ للهواء ، وسالت دموع من عينيه الداميتين فاختلطت بلعابه ، وبدا شعره المرقش المنحول الذى وخطه الشيب كأنما يتساقط مع العرق الغزير تاركا جلده الخابى أعرى من شجر الخريف .

بالاختصار كان حمار الحاج ياسين يحتضر ، وينظر إلى صاحبه من خلال الغشاوة التى حلقت فى عينيه ، نظرات

تفتت الكبد وتصدع الفؤاد ، نظرات حزينة ، دامعة ، شاكية بلا صوت ولا تنهدات ، هاتفة بغير لغة : ارحموا البائس الأخرس . . . نظرات نابت عن فمه الأبكم فى تحية الحاج ياسين تحية الوداع .

وحاول الحاج ياسين أن يفعل شيئا فخلع قلنسوة رأسه وكانت من اللباد ، وأخذ يغترف بها الماء من قناة قريبة ويصبه فى فم الحمار المحتضر صبا ، والحمار يعب من الماء عبا ولا يشبع ولا يروى . . .

وفى النهاية جلس الحاج ياسين فى جوار حماره على الأرض الملتهبة ، يمسح العرق عن جسمه برفق ، كالأم الثكلى ، وقلبه واجم حزين .

كان الحاج ياسين يحب حماره هذا ويعزه ، لأنه رافقه أربعة عشر عاما طويلة ، شاطره فيها العز والرخاء كما شاطره الجوع والمحن ، وحمل البرذعة الحريرية واللجام المفضض ، بنفس الروح القانعة الوادعة التى حمل بها غرارة القمح وغبيط السباخ . . .

وفى طول الأربعة عشر عاما ، فى الخير والشر ، كان حمار الحاج ياسين مضروبا به المثل فى الأنفة ، والغيرة والكبرياء .

فلم يشهد أحد ما فى يوم من الأيام حمار الحاج ياسين منكبا على مخلفات زملائه فى الطريق ، يشمها بشراهة ، ثم يرفع رأسه مستنشيا كما يفعل سائر الزملاء !

ولم يعرف أحد عن حمار الحاج ياسين أنه طامن من خطاه السريعة مرة ليطارد أنثى من بنات جنسه يقطرها بشره وإلحاح كما يفعل سائر الزملاء ! . . .

وقد كان لنهيقه دائما صدى فى قلوب بنات جنسه يملؤها تنهدات خرساء ، كما أن بطنه الضامر ، وصدره العامر ، وكفله الممتلىء ، وشعره « القروشى » وأذنيه المشرعتين على رأسه الجميل ، كانت كلها تجعله مطمح أنظارهن أينما غدا وحيثما راح . . .

والفضيلة الكبرى لحمار الحاج ياسين فى كل عمره الطويل ، أنه دائما كان حرا تكفيه الاشارة فما ألجأ صاحبه

يوما إلى عصا ، ولا اضطره لمهماز . .

كان يجرى دائما بآخر قواه ، وكان هو السابق المجلى دائما كلما اتفق له أن يجرى مع رهط من مطايا القرويين . .

ولم يسمح أبداً لحمار أن يتقدم عليه ، ولم يسمح لنفسه أبداً أن يتأخر عن حمار .

وكان يشق طريقه إلى صدر القافلة دائما مهما كانت الظروف ومهما اشتبك الركب وتراكم بعضه على بعض فى الطريق . . .

ولهذه الفضائل مجتمعة كان القرويون كلهم يعجبون بحمار الحاج ياسين ويحسدونه عليه ويساومونه على شرائه بأغلى الأثمان ، ولكن الحاج ياسين كان يعتز بحماره اعتزازا غريبا لأنه كان يعده هدية من سماء الله . . .

ذلك أنه وقع له صدفة ، وبثمن بخس فى سنة ١٩١٩ من مخلفات الحمير التي جمعتها السلطة العسكرية البريطانية فى سنة ١٩١٧ في حربها مع الأتراك على الشاطئ الشرقى لقناة السويس .

وكانت السلطة العسكرية فى ذلك العام قد جمعت خير حمير البلد وبغالها ، بأبخس الأثمان ، ودست بينهم بغير قصد حوالى مليون رجل كلهم فى عنفوان الشباب ، دفعت ثمنهم لمصر فى نهاية الحرب بنية من الحجر العارى فى الجيزة على شاطىء النيل ! . .

وعلى ذلك فقد كان الله وحده هو الذى يعلم فى أى مهد ولد حمار الحاج ياسين ، وفى أى مربط من مرابط العز والدلال تلقى هذه المبادىء العالية وهذا الخلق الأبى القويم !

والله وحده أيضا هو الذى كان يعلم من كانت أمه ، ومن كان أبوه ! . .

كان حمار الحاج ياسين يوم أطلق من الأسر يشبه يتيما خارجا من ملجأ الاقطاء ، قد يكون من سلالة لصوص ، وقد يكون من أصلاب أمراء . . .

لكن الأيام التالية ، كل يوم منها كان يبرهن للحاج ياسين برهانا جديداً على صفاء النبع الذى انحدر منه حماره ، وعلى طهر السلسلة التى انتقل فيها من صلب كريم إلى

صلب كريم !.

وفى حدود ثروته التى كانت تتسع أحيانا وأحيانا تضيق ، أكرم الحاج ياسين حماره ، وأخلص له كما أخلص له الحمار .

ومن أجل هذا الماضى كله جلس الحاج ياسين بجوار حماره العجوز الهزيل المحتضر يمسح عرقه برفق ، ويمسح الدموع من عينه بسذاجة فلاح ، ولو كان ابنه هو المسجى أمامه على الأرض ، لما عزَّ عليه أكثر مما عزَّ عليه هذا الرفيق الطيب ، وهذا الصديق المسعف الكريم . . .

وبينما هو فى حزنه وبؤسه ووجومه إذ رأى الحاج ياسين حماره يرفع رأسه ببطء ، ثم يتلع عنقه وينشر أذنيه المدلاتين فوق رأسه كما كان ينشرهما متوازيتين مشرعتين أيام الفتوة والشباب ، ولمح فى عينيه لمعانا غريبا يدب فى ظلامهما الكثيف ، وتطلع الحاج ياسين حيث كان يتطلع حماره فرأى قافلة من الحمير مقبلة من ناحية السوق ، وعليها أصحابها وما امتاروا من السوق

وكلما اقتربت القافلة ، كلما استشرف لها حمار الحاج ياسين ، حتى إذا دنت منها ثنى الحمار قوائمه الأربع كمن يتهيأ للقيام ، ثم حاول النهوض ولكن خانته قواه . .

ونهق حمار من حمر القافلة ، فأجابه حمار الحاج ياسين بصوت خافت ضئيل مقطوع ، ثم استجمع قواه كلها بارادة جبار ، ظهر أثرها فى جسمه عرقا ، وأحالت أنفاسه المتدافعة إلى لهاث . . . ولكنه وقف فى النهاية . . .

وهز ذنبه بعنف المستميت ومد رأسه إلى الحاج ياسين كمن يقول له هيا اركب . . قد سبقنا الرفاق ! . .

وفرح الحاج ياسين بهذا البعث المفاجىء ، فوثب على ظهر حماره الذى كان ينظر إلى الحمير التى سبقته فى هذه اللحظة بحوالى العشرة الأمتار نظرة الصياد للصيد الطريد . .

وما هى إلا لحظات حتى كان حمار الحاج ياسين فى الطليعة ، حيث كان دائما ، وحيث يجب أن يكون ؛ فى مركز القائد والدليل . . .

واندهش الحاج ياسين ، وقص على زملائه كيف أن

حماره قد حرن منه وتماوت وضحك من ذقنه ، وتعلم اللؤم في الزمن الأخير ! ! !

وسعل الحمار كأنه يحتج على السخرية من آلامه ، وأنّ كما لو كان مخلوقا بشريا أصيب بطعنة قاتلة من نكران الجميل ..

ولكنه استمر سائرا في الطليعة ، وأنفاسه تتدافع ، واللعاب يتدفق من فمه كأنه يتدفق من ميزاب ، ممتزجا بالدمع من عينه الخابية ، وبالدم من قلبه المذبوح . . .

وعثرت قوادمه ، وانكفأ بوجهه على قضيب من قضبان السكة الحديدية ، ثم هوى إلى الأرض ككتلة من خشب وهوى بجانبه الحاج ياسين مشيعا بعشرات من ضحكات وفكاهات زملائه القرويين . . .

ثم نهض الحاج لاعنا وضرب حماره عصا لم يرتعش تحتها جلده ولا بدا أنه أحس بها مجرد الأحساس ، وكانت لمسة العصا في شبابه الماضي تكهر به وتجمح به إلى شر الغايات . . .

لقد كان الحمار في شاغل عن الحاج ياسين وعصاه

ولعناته بالتطلع إلى القافلة السائرة ، وإلى الحمير التى سبقته ، يمد وراءها عنقه حتى ليكاد يمس به ظهره وبوده لو استطاع أن يقوم ، وأن ينتصر عليها انتصاره الأخير . !

ولكن هيهات فقد جحظت عيناه وغار ما بين ضلوعه ولم يكن بين ضلوعه شيء من فرط الهرم والهزال والنحول ، وطفح الزبد من فمه مصحوبا بالنجيع .

وأدرك الحاج ياسين وحماره يشد قوائمه الأربع ، ويمس برأسه الأرض عاجزا حتى عن أن يثير بأنفاسه الواهية ناعم التراب ، أدرك الحاج ياسين أن حماره لا يتماوت وإنما يموت ، فأكب عليه فى النهاية يبكيه !

وانطفأت فى لحظة ذبالة المصباح بعد أن أضيفت فى قبسها الأخير صفحة من المجد إلى التاريخ الحافل الذى خطته على الارض حوافر هذا الحيوان النبيل !

أم قويق

كان الهلال الكبير الجانح إلى الغروب بقوسه الأحمر المفضض ، عاجزاً عن إضاءة صفحة النيل فى الأقصر ، وأطلال المعابد القديمة ، وبقايا قبور الفراعنة على التلال الغربية فى وادى الملوك . . .

وبدت الأقصر فى سكينة الليل الأخرس ، وفى ضوء الهلال الخافى كمدينة الأشباح الحزينة ، وبدت أبواب معبد الكرنك فى نهاية طريق الكباش ، كما بدت عمدانه الكبرى ، كما بدت كل الخرائب المتداعية من حوله ، كأنها تعول بلا صوت ولا دموع على ليالى المجد التي ذهبت ولن تعود . . .

وعلى صوت الأرغول شقت سماء الليل الصامت ألحان هادئة ووديعة ، ومبللة بالعبرات ، مقبلة مع النسيم من سفينة

شراعية ، محملة بالتمر والدوم ، وسائرة فى النيل ببطء نحو الشمال :

الأوله آه . . .

والتانية آه . . .

والتالتة آه . . .

الاوله ملك رعوع فى مغانيكى

وكان زينه على الشطين

والتانيه مجد انطفى قنديله يوم فيكى

على عنينا طفاه البين

والتالتة حنّة أثر لونها على إديكى

قطع فينا وندّى العين

يا تخت رمسيس يا بيت العز يا طيبه . . .

***

وتفانى الصوت شيئا فشيئا حتى غاب تماما فى جوف الظلام البعيد ، وتمثال رمسيس الضخم الذى حطمته الفؤوس الرومانية وبعثرت بقاياه فى ثرى المعبد الغربى ، قطعة منه تحركت على نبرات الصوت الفانى ، وكانت معلقة بين اثنتين

من أخواتها ، فوقعت إلى الأرض حاملة معها دمعة من قلب رمسيس . .

ونعبت بومة على طلل قائم بجوار البركة المقدسة فى معبد الكرنك ، وانفتح باب على صوتها فى كوخ مبنى بالطوب الأخضر فى وسط الخرائب الحجرية ، وأطلت على أنقاض المدينة القديمة ثلاث عيون :

الأولى عين محبة طيّعة ، ممتلئة بالطيبة والدعة والحنان . لأنها عين امرأة تنتظر !

والثانية عين شريرة تبرق بشراسة كما تبرق عين النمر فى الظلام . . لأنها عين مجرم يترقب .

والثالثة عين رجل البوليس ، عين هادئة كصفحة النيل ، خابية كضوء القمر ماكرة كعين الثعلب . مشرفة من بين أنقاض العمد المحطمة على ساحة الكوخ .

الأولى عين « هنية » التى فتحت باب الكوخ بهدوء ووقفت على أعتابه ترقب الطريق ، وتحدق فى حقل القصب القريب . . .

والثانية عين « حمدان » زوج « هنية » المجرم القاتل ، الفار من ليمان طره ، حاملا معه عشرة أعوام فى قطع الحجر ، والنوم على الحجر ، والمشى المقيد فى الأغلال . .

والثالثة . . . عين مأمور الأقصر الجديد .

اقتحم حمدان باب الكوخ ، وعلى شعاع من ضوء الهلال الغارب منبعث من كوة مفتوحة بالجدار الغربى للكوخ ، رأت هنيّة وجه زوجها ، وأرادت أن تصيح من الرعب ولكن صوتها انحبس ، وبدا وجهها فى هذا الضوء الضئيل كوجه مومياء ماتت على آلة تعذيب .

وناداها حمدان بصوت خافت « قولى يا فاجرة من تنتظرين ؟ »

قالت وصوتها مختنق : « سلامة يا حمدان »

قال تريدين أن تسرقى عرضى وأخى فى يوم واحد . لا يا « بنت الكلب » لقد تركت سلامة أخي حيث لا تستطيعين أن تدنسيه . . . قولى ، من تنتظرين ؟

قالت : أقسم لك بالغالى أبيك . .

فجذبها بأحدى يديه من ضفائر شعرها الطويلة ، جذبة كشفت له كل وجهها ، ثم لطمها بالأخرى لطمة أطارت رأسها من الطنين والدوار ، وقال : « حسبك ، دعينا من أبى وأخي . وقولى من تنتظرين ... لقد أصبح اسمى تسلية فى أفواه الناس ، إنهم يتكلمون عن عرضي فى الأسواق إنهم يتطلعون لي باحتقار ، ويسبّوني بلا ألفاظ . . لى أربع ساعات وأنا واقف أنتظر ، يشرب من دمي البعوض . . . وقد قتلت رجلا من أجلك وعشت كاليت الحى ، فقولي .. قولى من تنتظرين ؟ »

قالت والدموع تتساقط من عينيها . . . «أنتظر سلامة يا حمدان ، أنتظره لأعطيه نصيبك من الشاى والسكر والكعك والزاد . »

قال وهو يهز رأسها فى يده بعنف : « إننا فى منتصف الليل الآن ، وسلامة يحمل لى زادي فى مطلع الفجر ، فقولى يا شقية ، قولى من هو ؟ »

قالت إنى لا أعرف متى نحن ، ولكنى أفتح له الباب

عنـد ما أسمعه ينعب من الخارج نعيب اليوم ، وقد سمعت النعيب الآن ففتحت الباب . . . كنت ساهرة من أجلك طول الليل يا حمدان ! .

ومزق ما بقى من سكون الليل وحرمة التاريخ وأشجان الخرائب القديمة صوت ثلاث رصاصات ، الأولى أصابت قدم حمدان اليمنى ، والثانية أصابت قدمه اليسرى ، والثالثة أصابت ذراعه المعلق فيها حزام البندقية ، فترك امرأته ، وهمَّ بالدفاع عن نفسه ، فاذا أربع بنادق مصوبة إلى صدره ، بنادق جنود ، وإذا صوت مأمور الأقصر يطلب منـه التسليم . .

***

كان حمدان يعيش بعد فراره من السجن فى منفاه الاختيارى بالضفة الغربية بين قبور الفراعنة ، متنقلا كالضبع من وجار إلى وجار ، يأنس إلى الذئب وابن آوى ، ويرهف أذنه وعينه كلما سمع صوت إنسان ، وينام والبندقية تحت رأسه فى كهف من كهوف وادى الملوك له أربعة أبواب ، ذات

أعتاب حجرية لا تظهر عليها طبعات الأقدام ، ويتلقى الزاد والماء فى فجر كل يوم على يد أخيه « سلامة » يرقبه وهو مقبل من أعلى الجبل ، حذر العيون والأرصاد . . .

ومنذ فر حمدان من سجن طره ، قتل على الشاطىء الغربى ، فى أوقات متفرقة ، مأموران لمركز الأقصر ، وحوالى ثمانية جنود ، وأربعة أشخاص ، وكل الناس كانوا يعرفون القاتل ، ولكنهم يحسنون السكوت ، ورجال البوليس أنفسهم لم يكن أحدهم يذهب إلى الشاطىء الغربى إلا تاركا وصيته فى الدار ! . .

وقد شوهد حمدان أكثر من مرة فى سوق الأقصر فى وضح النهار ، ولكن العيون كانت تراه ، والأفواه تنطبق وتكتم سره فى قرار القلوب .

وقد ذهبت عبثا كل الجهود التى بذلت للقبض على حمدان . .

وعين للأقصر مأمور جديد . . . وكان يضحك كثيرا ، ويبدو فى وجهه أنه بلا سريرة ، ولما يمشى تضرب

الأرض قدماه بصوت غليظ . وكانت عيناه هادئتين ولا تبرقان . وقد سحب كل الجنود المنبثين فى وادى الملوك ، وأعلن أكثر من مرة ، أن له أربعة أولاد ، وأنه ليس على استعداد لأن يروى رمال الصحراء من دمه أو دم أحد من رجاله بلا فائدة ، ويكفى ما شربته غدرا من دماء الآخرين ، وإن كان للحكومة ثأر عند حمدان ، فليأت رئيسه الأعلى وزير الداخلية يطالبه وجها لوجه بما يشاء . . . وكان عندئذ يضحك ضحكة بلهاء ، ويقبل ولده الصغير الذى كان يلازمه باستمرار ، ويقول لسامعيه حرام أن أموت وأترك ورائى مثل هذا أربعة أيتام . . .

وكل شيء كان ينقل بأمانة إلى حمدان ولكنه لم ينخدع بالسكون ، وظل ينام فى وادي الملوك والبندقية تحت رأسه وكل سمّاره النجوم ، والتماثيل ، والتهاويل المرسومة على جدران الكهوف الحجرية ، بألوان قهرت أربعين قرنا عوادى البلى والفناء ، وأرواح حتشبسوت وطوطميس وسيتى ورمسيس فارة هى الأخرى من معابدها الشرقية ، الحافلة

بذكريات الرق ، وضياع المُلك ، وذل البنين ! . .

على أن المأمور بالرغم من هذا السكون الظاهر ، وهذا التمرد على الواجب والقانون ، كان فى أعماق نفسه يفكر فى حيلة للقبض على حمدان . . .

وظل يبحث ويستقصى ، ويجمع ويطرح ، فى وسط الجو الهادى الذى خلقه حول نفسه حتى تأكد أن حمدان يتلقى زاده عن يد أخيه سلامة ، وأن بومة كانت تنعب فى فجر كل ليلة فى خرائب المعبد ، بومة بشرية ، فينفتح على أثر نعيبها باب الكوخ الذى تسكنه هنية إمرأة حمدان ، وتظهر هى من وراء الباب ، فتنتظر حتى يوافيها سلامة ، فتعطيه قصعة ممتلئة ، وتأخذ منه قصعة فارغة ، وتحدثه عن زوجها قليلا ، ثم تقفل الباب بعد أن تودعه وتتمنى له أن يصبح على خير . . .

وعندما انكشف للمأمور هذا السر كان سعيدا كالذى وفق إلى حجر الفلاسفة ، ولكنه ظل على هدوئه وقلة إهتمامه وضحكاته البلهاء ، حتى إذا كان يوما ما واقفا بلا حاشية

وبمنتهى البساطة فى المعبد البحرى يشرح سر الصور المرسومة على جدرانه لأبنائه الأربعة ، طلع عليه حمدان . . .

ولم يكونا فى حاجة إلى وسيط للتعارف ، فقد كان كل منهما يحلم نصف وقته بأخيه ! !

وحيّا كل منهما الآخر بنظرة وابتسامة ، ولكل منهما عين فى قفاه ، ثم شد كل منهما على يد الآخر كأنما يمتحن قواه ، وفتح المأمور الحديث فقال لحمدان : أتدرى أننى معجب بك إعجابي ببناة هذا المعبد القديم ؟ . . أتدرى أننى أحيانا يخيل لي أن واحدا من الفراعنة قد تحدى الخلود والقدر وتقمص فيك هذا الجسد القوى المفتول ؟ . .

وأجابه حمدان باسما :

— العفو ياحضرة المأمور !

فاستأنف المأمور :

إننى معجب بك حقيقة ، إننى لا أمزح ، معجب بقوتك وشجاعتك وشهامتك ، بل وأستطيع أن أقول إننى أحبك ، وبهذه المناسبة أريد أن أحذرك من خطر ينتظرك ،

إن سعادة المدير أرسل يقول لى إنك تزور بيتك مرة فى منتصف كل ليلة ومرة فى مطلع الفجر ، ويطلب منى أن أتربص لك فى إحدى هذه الساعات . . .

وقاطعه يا حمدان :

فى مطلع الفجر قد يكون هذا معقولا ، وسوف لا أفعل فى المستقبل ، لكن فى منتصف الليل ؟ . . فى منتصف الليل ؟ . . هذا غريب ، أواثق أنت مما تقول ؟

قال كذلك يقول المدير وفى قوله قوة اليقين . . . لكن مالك هكذا ممتقع الوجه ، لا عليك ياشيخ ، لا تبتئس . . . لو قضيت الليل كله فى بيتى فلن أمد لك يدى بسوء ! .

وفى الواقع كان وجه حمدان قد انتقع فجأة ، وارتعشت شفتاه ، وبدا كأنما ألف شيطان بذكون النار التي ارتقدت فى فؤاده بغتة ، ويسائلونه عن هذا الزائر الليلى الذى يعبث بشرفه فى منتصف الليل آمنا شر العيون والرقباء . . .

كانت الطعنة أكبر من شجاعة حمدان ومن دموعه ، لأن شرف الفلاح أكبر فى نظره من الحياة ومن السجن

ومن المشنقة ، فاعتصر قلبه وابتسم ، وشد على يد المأمور شاكرا بلا ألفاظ ، وتولى عنه وشفتاه كشفتي تمثال ، لولا رعدة تضطرب فيهما كأنها دمدمة لا تستطيع الخلاص .

ولبث المأمور يرقبه حتى غاب عن نظره ثم أخرج من حنجرته صوتا لم يشك أولاده الأربعة فى أنه نعيب بوم !!

* * *

وقعت البندقية من يد حمدان ، ووقف هو بمجهود الجبابرة يصلب نفسه على ساقين أوهاهما الرصاص ، وجلست هنية على الأرض تنظر من المأمور إلى حمدان ، ومن حمدان إلى المأمور ، وكلاهما مشغول عنها بالآخر هذا يتطلع بعين الضعيف المنتصر ، وذاك يتطلع بعين الجبار المقهور .

وانتهت المعركة الصامتة التى لم تدم سوى لحظة على صوت هنية تخاطب المأمور . . . لقد أحكمت نصب الشرك يا حضرة المأمور . . . !

ثم التقطت بندقية زوجها ، فأطلقت منها رصاصتين على صدر المأمور ، ونادت زوجها وهى ترمي البندقية ، وتتلوّى

على كتفها التى أصابتها بغتة بنادق الجنود.

« ولو انك ماتستاهلش ! رح أموت معاك ياحمدان ! »

***

ونعبت بومة حقيقية فى فجر هذه الليلة على خرائب معبد الكرنك . . .

نعبت على عدد من الجثث . . وأربعة أيتام ! ! ؟